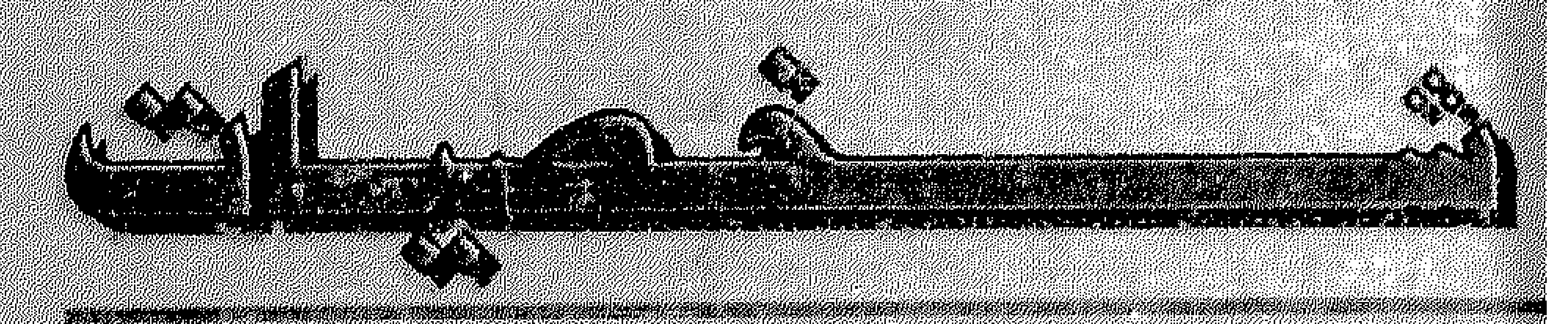


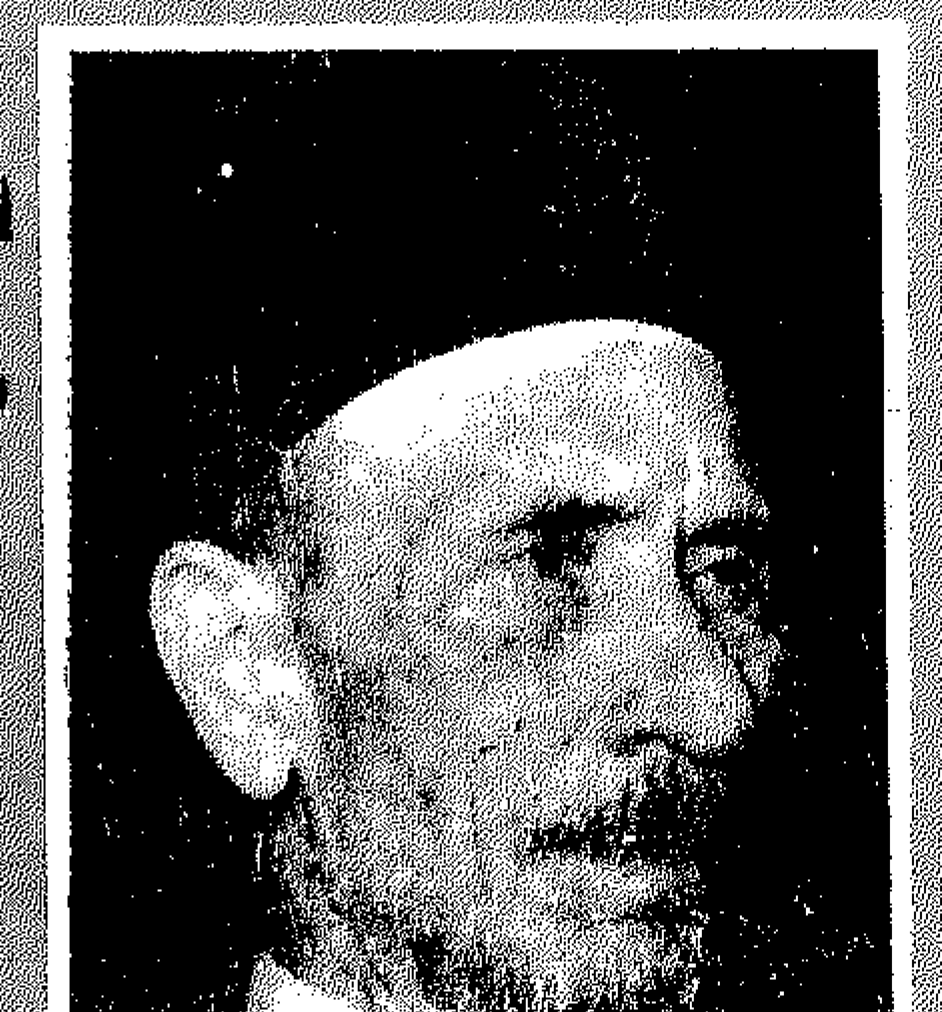


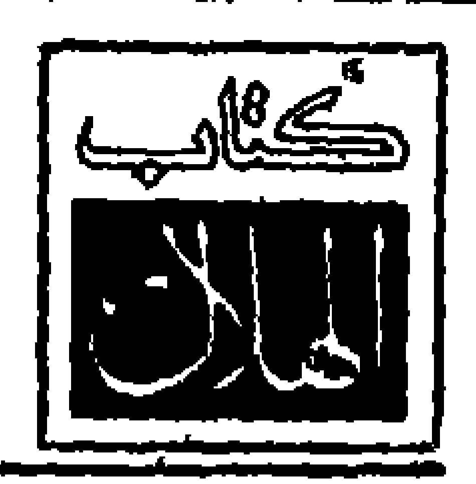




كتاب
الهلال

د. احمد
عبد الرحيم
مصطفى





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة:

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
NO - 516 - DE - 1993 العدد ٥١٦ - جماد ثان - ديسمبر ١٩٩٣
FAX 3625469 : فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٢٥٠ قرشاً :

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٥٥٠٠ ليره - الأردن ٢ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٢ ريالا - تونس ٢ دينار - المغرب ٢٥ درهما - البحرين ١,٢٠٠ دينار - الدوحة ١٢ ريالا - دبي وأبو ظبي ١٢ درهما - مسقط ١,٢٠٠ ريال - غزة والضفة والقدس ٢ دولار - لندن ١,٥٠ جك .

شخصيات مصرية

بقلم :
د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :

محمد أبو طالب

مقـــدمة

استعرض فيما يلى بعض الشخصيات العامة التى ظهرت فى مصر قبل قيام ثورة - أو حركة - الضباط فى عام ١٩٥٢ . وقد سبق أن نشرت دراسة لبعض هذه الشخصيات فى مجلة «الهلال» التى كان لرئيس تحريرها الأستاذ مصطفى نبيل الفضل فى الاشتراك معى فى التخطيط لعرض معظمها بهدف توجيه الأجيال الصاعدة إلى تتبع الصورة العامة لتاريخ مصر المعاصر من خلال بعض أبرز الشخصيات التى لعبت دورا هاما فى الحياة العامة ثم طواها النسيان العفوى أو المقصود نتيجة لتركيز العهد الجديد بعد عام ١٩٥٢ على أشخاص وأحداث جرى اختبارهم بالذات وتلوينهم بشكل يستهدف إبراز فساد الحياة السياسية وبالتالى توفير تبرير لقيام العهد الجديد الذى بولغ فى تضخيم إنجازاته وكأنها منفصلة عن تاريخ مصر العام .. والدليل على ذلك أن مسئولا كبيرا صرح لى فى معرض الحملة التى اشتركت فى القيام بها فى أوائل الستينات من أجل توفير وثائق تاريخ مصر الحديث وتسهيل الاطـــلاع عليها ، بأن تاريخ مصر الحديث يبدأ يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢!

وليس معنى اختيارى لبعض الشخصيات كمحور لتاريخنا الحديث أنها كانت الوحيدة التى تصنع الأحداث بل كانت ثمة إلى جانبها شخصيات أخرى كثيرة وبعضها كان لا يقل عنها أهمية - فقد سبق للمؤرخ الكبير محمد شفيق غربال أن أشار فى كتاب «تاريخ المفاوضات المصرية - البريطانية » إلى أن مصر قد عرفت فى أعقاب ثورة ١٩١٩ شخصيات قل أن تظهر بمثل هذه الوفرة وفى مثل هذه الحقبة فى بلدان أخرى وبخاصة فى المجال السياسى : فهناك سعد زغلول وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود واسماعيل صدقى ومصطفى النحاس وغيرهم وكانوا فى مجالهم نظراء لغيرهم فى البلدان الأوربية . حقيقة أن مصر عرفت فى فترة ما بين الثورتين (١٩١٩ - ١٩٥٢) أعدادا كبيرة ممن اجتذبتهم السياسة بكل مميزاتها ومشاكلها ومتاعبها وهم أكثر بكثير ممن كانت البلاد بحاجة إليهم فى مجالات أخرى تستلزم الخبرة والاطلاع والتخصص فى الوقت الذى كانت فيه السياسة حرفة لبعض الطامحين الذين استسهلوا مجالها وخاضوا فيه بالشكل الديماجوجى المعروف فى كثير من بلدان العالم الثالث وهو الشكل الذى يعتمد على التآمر والتفنن فى حشد المصفقين والإمعات والمستفيدين من تقلبات الحكم وسلطانه - والكل أعلى صوتا من العالم فى مكتبته أو فى معمله أو فى تربية كوادر جديدة فى

تخصصه الذى يستلزم قدرا كبيرا من الاطلاع والتفرغ والبعد عن الأضواء.

وهكذا استقطبت السياسة الاهتمام العام فى مصر وأصبحت مجالا خصبا للظهور والكسب والسلطة وملحقاتها . وقد برع أديبنا الراحل الكبير توفيق الحكيم فى تصوير الجو السياسى فى العهد السابق على نظام ٢٣ يولية ١٩٥٢ - فقد قدم لنا صورا حية عنه فى «يوميات نائب فى الأرياف» و «مسرح المجتمع» و «شجرة الحكم» وغير ذلك مصطنعا أسلوب السخرية والنقد اللاذع ومبرزا ألوانا متعددة من الفساد الذى تردى فيه المجتمع المصرى فى الوقت الذى انزلق فيه إلى وهدة لا معقولة ولم توجد فيه قضية عامة تجمع «الكل فى واحد» على غرار ما حدث أثناء ثورة ١٩١٩ التى قدم فيها المصريون التضحيات وجادوا بالنفس والنفيس فى سبيل تخليص البلاد من المستعمر الغاصب ، حتى إذا ما هبط المد الثورى أمسك الساسة بتلابيب بعضهم البعض وأنسوا الناس القضايا العامة بعد أن هبطت القضية الوطنية من مستوى النضال بين شعب يريد أن يستقل ودولة تريد أن تستعمر إلى التحايل على الفوز بكراسى الحكم بين بضعة أفراد يطمحون إليها وممثلى الدولة المحتلة التى تتصرف فى أمر البلاد . واتجاه الحركة الوطنية هذا الاتجاه قد ترتب عليه بمرور الزمن إقصاء القوى الشعبية عن

مجالها - فما دامت الجماهير تجد أن الأمر لا يعدو وصول بعض الرجال إلى الحكم ، ولا تجد لدى من يحكمها ما يتصل بحياتها اليومية ، ولا ترى نهاية لتفاوضهم مع المحتلين ، فهى منتهية إلى عدم الاكتراث إلا إذا وصل الأمر إلى المساس بالكرامة الوطنية ، ومن ثم ما اعتور حياتنا السياسية من نقص وقلق وتدخل السلطة التنفيذية فى الانتخابات وبقاء الأداة الحكومية ، دون إصلاح أو تعديل وإهمال الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى عهد قريب .

وليس معنى تتبع تطورات التاريخ المصرى المعاصر من خلال بعض الشخصيات الهامة التى برزت على المسرح أننى من أنصار دور «البطل» فى التاريخ وهو ما قد يتبادر إلى الأذهان بمعنى أن ظهور الشخصيات البارزة كفيل بأن يجعل الجماهير تنقاد وراءها بإرادتها أو بدونها كما ينقاد القطيع وراء الأقوى والأبرز - إذ ثمة علاقة ديالكتيكية بين الفرد والمجتمع ، كل منهما يؤثر ويتأثر ؛ إذ جماهير بدون قيادة لا تعدو أن تكون ضربا من الغوغائية ، وقيادة بدون جماهير لا تعدو أن تكون شخصيات أسطورية عديمة الوجود الحقيقى ، شأنها فى ذلك شأن الإنسان الغزال أو الإنسان الذئب !

وقد درج عباد البطولة على التركيز على جوانب معينة من الشخصية المدروسة ، فالصورة إما بيضاء ناصعة أو سوداء مظلمة مما يتنافى مع الطبيعة البشرية بخيرها وشرها ، ولقد آثرت

العرض الموضوعى للشخصيات التى تناولتها وذلك فى إطار الظروف العامة التى تحركت من خلالها دون قدر من الانحياز أو التحامل اللذين لا مبرر لهما ، بحكم أننى لم تربطنى أية علاقة إيجابية أو سلبية بأى منهم بحكم أنني بعدت عما درج عليه البعض من إحاطة الشخصية المدروسة بالقداسة وكأنها آلهة تمشى على الأرض أو بالنقد المتواصل وكأنها شياطين جبلت على الشر . وخير مثال لذلك تأليه الكاتب الكبير الراحل عباس محمود العقاد لشخص سعد زغلول فى السيرة التي كتبها عنه ، علما بأن سعد كان بشرا يمشي على قدمين ويصيب ويخطيء - وكان سعد أكثر توفيقا من كتاب سيرته من حيث إنه - فى مذكراته التى يقوم الزميل عبد العظيم رمضان على نشرها - يسجل بعض أخطائه ويصدق فى تصوير نواحى قوته وضعفه وبخاصة خلال الأزمات التى مر بها . وقد تكون محاسبته لنفسه التى تملأ كثيرا من صفحات الجزء الرابع من هذه المذكرات من العوامل التى جعلته يتجنب بعض المزالق التى وقع فيها مما مهد للدور الوطنى الذى لعبه خلال العقد الأخير من حياته . كما يوجد بعض الكتاب الذين ألهوا مصطفى كامل ومحمد فريد أو اشتطوا فى الهجوم على أحمد عرابى وعلى الثورة التى قادها على اعتبار أنها أدت إلى الاحتلال البريطانى دون التفات إلى أن الإمبريالية الأوربية فى فترة الثورة العرابية كانت عاتية فلم ينج منها إلا القليل من بلدان العالم الثالث .

هذا وغيره من مشاكل التقويم التاريخى الذى يختلف باختلاف العصور والأشخاص وإن يكن ثمة حد أدنى من الاتفاق على أحكام خاصة بالأشخاص وبالأحداث دون محاباة أو تحامل أو طلب المحال . وليس معنى اختيارى لبعض الشخصيات التى ظهرت قبل عام ١٩٥٢ أنه لم تظهر بعد ذلك شخصيات أخرى تستحق الالتفات ويختلف حولها الناس ما بين مادح وقادح ، ولكننا درجنا نحن المؤرخين على ألا نعرض للأشخاص والأحداث فى حياتهم أو بعد وقت قصير من وفاتهم ، وذلك حرصا على أن تكون الصورة قد استقرت ومزيد من المعلومات قد ظهر وانفعالات الحب أو الكره قد هدأت ، وحينئذ نقترب من الموضوعية النسبية - إذ الموضوعية الكاملة بعيدة المنال - فالكمال لله وحده والبشر خطاءون .

وأخيرا أشكر دار الهلال التى تفضلت بنشر هذه الخواطر التى أرجو أن يكون لها صدى لدى المفكرين الجادين .

وأشكر الأستاذ مصطفى نبيل والزميل الأستاذ الدكتور أحمد زكريا الشلق إذ لولا تشجيعهما وملاحقتهما لى ما كان لهذا الكتاب أن يخرج إلى حيز النور

والله ولى التوفيق

أحمد عبد الرحيم مصطفى

مايو ١٩٩٣

الشيخ محمد عبده

فى حركة التجديد الإسلامى

(١٨٤٨ - ١٩٠٥)



● الشيخ محمد عبده

كان محمد عبده ذا أثر بالغ فى تطور الفكرين السياسى والدينى فى مصر فى أعقاب الاحتلال البريطانى فقد شهد ظلم إسماعيل وعاصر الثورة العرابية التى أيدها بكل قوة واهتز لفشلها خاصة أنه تلقى بعض العقوبات التى طبقت على أقطابها. ولقد عرف أسرار هذه الثورة وعانى من ضعف النفوس آلاما اجترها وهضمها أثناء منفاه فى الشام ومقامه فى باريس حيث كان يصدر جريدة «العروة الوثقى» بالاشتراك مع أستاذه جمال الدين الأفغانى. وحين عاد إلى مصر بنى خطته على أساس الضرب على يد الأوتوقراطية الخديوية التى تسببت فى الديون ومهدت للاحتلال الأجنبى وأوقعت بالمصريين صنوفا من الظلم لا حصر لها. ولهذا فإنه ركز على الإصلاح الداخلى لأنه اقتنع بأن النهضة السياسية إذا لم تقترن بنضج اجتماعى وعلمى وثقافى لم تكن حرية بأن تؤتى مايرجى لها من ثمرات، ولهذا هادن هو وتلامذته الاحتلال واعتمد على مساندة اللورد كرومر فى كل مااستهدفه من مشروعات إصلاح الأزهر والقضاء الشرعى وأكد النواحى العملية فى الفكر والسياسة مما جعله زعيما للاتجاه الليبرالى الإسلامى الذى مالبث أن أصبح الإطار الفكرى لتلاميذه

الذين تركوا بصماتهم على تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ولو أنهم اتهموا بالدفاع عن الاحتلال، كما واجهوا الهجوم من جانب ذوى الفكر التقليدى بعد أن دعوا إلى تنقية الدين من الشوائب وفتح باب الاجتهاد.

وإذا كان جمال الدين الأفغاني قد لعب دور سقراط بالنسبة إلى حركة التجديد الإسلامى فى مصر، فقد لعب تلميذه محمد عبده دور أفلاطون: ولقد أوضح أراء استاذه ونظمها وطورها. وكان من رأيه ضرورة إثارة روح المسلمين وتوجيههم صوب أخوة إسلامية مشتركة مع الإحساس بكونهم مسلمين. فأحوالهم الاجتماعية والأخلاقية والثقافية يرثى لها ونواحي ضعفهم كثيرة بحكم أنهم كانوا يرزحون تحت عادات كثيرة ترتبط بالفساد والانحلال ولا تمت بصلة إلى الدين الإسلامى بمقدار ما كانت نتيجة لجهلهم بالإسلام الصحيح وفشلهم فى ممارسة ما يعرفون. وعلاج كل ذلك لديه كامن فى الرجوع إلى الإسلام الصحيح .

ولكن ما هو الإسلام الصحيح الذى يجب أن يتمسك به المسلمون؟ لقد حدد الإجابة على الوجه التالى : «ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل

البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وضبطه.. وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث فى أسرار الكون داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل » .

وكان يرى أن الأمل الوحيد فى إحياء المسلمين يكمن فى العودة إلى أسس دينهم ووجوب إثارة يقظة ذهنية جديدة عن طريق التعليم والأخذ بالدراسات العلمية الحديثة بحيث يمكن للأمم الإسلامية أن تنافس الأمم الغربية - إذ إنه كان يعتقد أنه لا يوجد شىء فى روح الحضارة الحديثة يناقض الإسلام الصحيح إذا ما أمكن فهمه فهما سليما والتعبير عنه تعبيرا سليما. فهو دين توحيد لا شرك فيه، تنزيه لا تجسيم فيه، وهو يعتمد على العقل ويستنهضه لإدراك أن العالم له صانع واحد عالم قادر. والعقل لازم للدين لأنه المرشد إليه، فى حين أن الدين لازم للعقل لأنه يكمله ويقومه. والإسلام الصحيح يفسح صدره للعلم ويدعو إليه، لأن العلم يكشف أسرار الكون بحيث تتسنى معرفة الله وإجلاله، وهو فى تفسيره حاول التوفيق بين الإسلام ونظرية المدنية الحديثة واتبع طرقا من التأويل للتوفيق بين الدين ونظريات العلم.

وكان محمد عبده يرى أن إصلاح المسلمين عن طريق دينهم أسهل واجدى من إصلاحهم عن طريق الاحتكام إلى العقل والأخذ بأساليب المدنية الأوربية. كما أنه دعا إلى الاحتكام إلى العقل وفتح

باب الاجتهاد بحيث تتسنى مواجهة المتغيرات الحديثة وبذلك تتخلص الشعوب الإسلامية من تخلفها وتستعيد مجدها الغابر..
فمن رأيه أن سبب تدهور المسلمين ناتج عن الربط بين الدين والسياسة وبين الفلسفة والفقه وعن الموقف المحافظ الذى كان يقفه «العلماء» المتزمتون من هذين التحديين، ولهذا ذهب إلى أن أوضاع المسلمين لن تتغير إلا بتطوير العلم بالشكل الذى يتمشى مع الإسلام عن طريق السياسة. وكان شديد الإعجاب بمنجزات أوربا فى العصور الحديث وبجدية مجتمعها وإن كان يلمس صعوبة نقل قوانينها ونظمها، بحكم أن القوانين التى نبتت فى أرض مخالفة لا تنسجم وأوضاع البلدان التى تستوردها، بل قد تمعن عملية النقل في تعقيد الأمور حين يتعذر فهمها، وبالتالى لن تكون مدعاة للاحترام. فالأخذ بالنظم الغربية لديه لايكفي وحده لحفز الاصلاح الذى لن يتم إلا بالرجوع إلى مجموعة صغيرة من المبادىء التى يقبلها العقل. ولما كان يرى أن القانون الإسلامى هو التطبيق العملي للمبادىء على ظروف العالم المتغيرة فقد اتجه إلى إعادة تفسيره بالصورة التى تسمح باقتباس الجوانب الصالحة من الأخلاق الأوربية وحين سعى إلى المصالحة بين العلم والدين، وحين أقر ضرورة إعادة النظر فى القانون الإسلامى بحيث يتمشى مع متطلبات العصر مهد الأذهان دون أن يدرى لظهور أفكار خاصة بكل من الدين والدولة تختلف عن أفكار الماضى . .

على أن محمد عبده لم يوفق فى إضفاء الصبغة الإسلامية على التقليد الليبرالى القائل بوجوب الفصل بين الدين والدولة. كما لم يوفق فى التغلب على الاتجاهات العلمانية لدى أنصار العلم الحديث. ولقد عمل على التغلب على الشكوك التى أحاطت بكل من العلم والحضارة الغربية، كما عمل على إضعاف الحلف القائم بين رجال الدين وبين السلطات التقلييدية . ورفض الأساس التاريخى للإجماع الإسلامى وذهب إلى أن إجماع العقل وحده هو الصحيح والمعقول. وبالإضافة إلى هذا فقد ذهب إلى أن نظام الخلافة لا يدخل في نطاق العقيدة الإسلامية وهو الرأى الذى أتيح لتلميذه على عبد الرازق أن يطوره ويحدث به ضجة خلال العشرينيات من القرن العشرين. وعلى أية حال فقد وفق محمد عبده فى فصل الجانب السياسى عن الجانب الدينى، فأصبح كل منهما مستقلا عن الآخر ولو أن انفصالهما لم يكن كاملا .

ومن الطبيعي أن يخطىء معاصرو محمد عبده فى فهم أفكاره. فقد رفض المحافظون دعوته من أساسها، على حين فضل تلامذته السير على نهج الأفغانى الذى كرس دعوته للنشاط السياسى وبخاصة ضد الاستعمار الغربى، ولو أن نشاطه أدى إلى ظهور مايعرف بالسلفية التى قيض لتلميذه رشيد رضا - الذى كتب سيرته - أن يكون أهم دعاتها .. ولقد اتهم محمد عبده بأنه «لاأدرى

وأنه «معتزلى» و «ماتوريدى» كما اتهمته بعض الدراسات الغربية الحديثة بالإلحاد ، وذلك كله رغم صعوبة ربطه باتجاه معين. حقيقة أن أحكام ابن تيمية كانت مصدرا لإلهامه فى الوقت الذى شغل فيه وظيفة الإفتاء إلا أنه لم يقبل تزمته، وإن يكن الدكتور عثمان أمين ينفى تأثره بابن تيمية ومدرسته « المحافظة » التي ناصبت الفلسفة العداء، وحين مزج محمد عبده بين عدة عناصر ليقيم نظاما عقائديا كان مبدؤه فى الاختيار عمليا قبل أى شىء آخر. فالعمل لديه هو أعلى مراتب الكمال، والمفاهيم الدينية من الواجب الأخذ بها لحث الناس على العمل والتمسك بالفضيلة، ومن ثم فإنه كان يرى أن المفاهيم الوحيدة ذات القيمة هى التى تؤثر فى حياة الناس العملية وتساعد على إطلاق الطاقات لتحسين الذات. وفى رأيه أن الفكر الإسلامى قد أخطأ حين انفصل عن الحياة وتأثر بالفلسفة الإغريقية مما شغله بمشكلات لم يكن لها أثر فى الحياة، وربما كان محمد عبده متعدد الجوانب، ولكنه كان تجريبيا قبل أى شىء آخر. وليس ثمة شك فى أن المنهج الذى اتبعه كان أكثر ملاءمة للفكر العصرى لأنه دخل فى الإطار التاريخى وبالتالى أصبح ذا معنى. ومع ذلك فقد يكون من الخطأ افتراض أن تحليله تاريخى بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معنى وذلك لأن تاريخ علم التوحيد ليس علم التوحيد ذاته بل هو قصة انحراف الفقه الإسلامى عن أهدافه الحقيقية .

ولنا بعد كل هذا أن نتساءل : كيف أتيح لهذا الشيخ، برغم اتجاهه السلفى، أن يأخذ بمنهج من أحدث مناهج التحليل العصرية؟ وللإجابة على هذا التساؤل نجد أنه كان ملما بعض الشيء بالفكر التاريخى الأوربى ونظريات التطور التاريخى، وبخاصة نظريات علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الانجليز: سبنسر وفريزر ووسترمارك، كما اطلع على مؤلفات رينان وتين وجبون وجوستاف لبون وماكس نورداو. كما اعتمد فى معظم مادة مقدمة كتابه «رسالة التوحيد» على مقدمة ابن خلدون التى قام بعض الوقت بتدريسها، وكان يتفق مع ابن خلدون فى اعتبار الدين أمرا لا غنى عنه فى تحقيق السعادة الفردية والاجتماعية ومع الغزالى فى اعتباره مسألة تتعلق بالقلب ولو أنه تجاوزهما فى الدعوة إلى كبح جماح العاطفة الدينية بالاحتكام إلى العقل، خاصة وقد تبين من تاريخ المتصوفة مضار هذه العاطفة .

وأغلب الظن أن تأثر محمد عبده بابن خلدون راجع إلى اشتراكهما فى مواجهة صعوبة التوفيق بين المتناقضات الكامنة فى التاريخ والفكر الإسلاميين وإلى اهتمامهما بإيضاح أسباب تخلف المسلمين. ولاتتمثل عصرية محمد عبده فى تقبله للإطار التاريخى كما لا تدخل فى نطاق المحتوى الإسلامى نظرا لقبولها المنهاج الغربى فى التحليل بل تتمثل فى الفكرة السائدة لدى كثير من

المسلمين عن التاريخ الذى يمثل لديهم الحق والصدق من الزاوية الدينية. وبهذا تكمن عصريته فى رفضه للتاريخ ولأوضاع المسلمين فى زمانه. ومن دلائل شدة ثقته فى فعالية العقل أنه اعتنق مبادىء حركة الاستنارة الأوربية فى القرن الثامن عشر، ومن ثم إيمانه بالتعليم الذى مهد له الطريق بتمرده على تعاليم العصور الوسطى المدرسية واخذه بالعلية فى الطبيعة والمجتمع وتأكيده لحرية الإنسان فى الاختيار وللطبيعة الاجتماعية - النفعية للأخلاق ولتحكيم العقل فى جميع مجالات الحياة .

ولقد أدى تأكيد محمد عبده للنواحى العملية إلى تحويل ليبراليته الإسلامية بالتدريج - علي أيدى تلامذته إلى ليبرالية إنسانية. فعلى حين أنه كان يرى أن الدين هو أساس الرابطة الاجتماعية مال تلامذته إلى إحلال الدافع الوطنى محل الدافع الدينى دون أن يمسوا أسس الإسلام ولهذا كانوا أكثر فعالية من كل من العلمانيين الصرف والمتدينين المحافظين، وبذلك شكلوا مجموعة تقف فى منتصف الطريق بين طرفين متناقضين هما التقليديون المحافظون والعلمانيون الصرف، ومع ميلهم بمرور الزمن الى الفئة الثانية التى قيض لها أن تتصدر الحياة العامة فى مصر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حين بدا عجز المحافظين الجامدين عن فهم العالم الحديث أو السيطرة عليه مما حتم اختفاءهم عن المسرح على

العكس من رافعى لواء الأفكار الحديثة التى لم يكن من السهل مقاومتها فقدر لها أن تزعزع أسس المجتمع التقليدى وتحاول إعادة تشكيله. فلم يعد فى وسع الإطار الإسلامى التقليدى الذى شكل أسس النظام الثقافى فترة طويلة أن يجتذب قطاعات واسعة من المثقفين بعد أن حولته عصور الركود السابقة الى طقوس جامدة مشدودة الى الماضى وعاجزة عن التكيف، خاصة أن الإسلام، باعتباره نظاما عقائديا، قد اضطر إلي الوقوف موقف الدفاع إزاء الحملات المتلاحقة التى شنها عليه الغرب. وكانت نتيجة كل ذلك ظهور فراغ فى المجتمع العربى بوجه عام والمصرى بوجه خاص وهو الفراغ الذى تصدت الوطنية والقومية لسده لدى المثقفين الذين اعتبروهما مجموعة من القيم الثقافية التى تحول إليها كثير من العواطف الجياشة التى ارتبطت فى الماضى بالدين ومن ثم توجيههم لها لكى تكسب ولاء الجماهير .

وإذا كان الأفغانى قد ارتبط بحركة الجامعة الإسلامية فقد ارتبط محمد عبده بالمرحلتين اللاحقتين وهما مرحلتا البعث السياسى للإسلام وإصلاح النظرية القانونية والفلسفية فى الإسلام. وكانت أراء شبيهة بتلك التى بلورها محمد عبده قد بدت فى الأفق خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر حين بدت نفس الاتجاهات الاصلاحية لدى بعض المفكرين فى أكثر البلدان

العربية تقدما. وقد يكون من دواعى تبسيط الأمور أن نعزو هذه الأفكار الى تأثير كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، بل إنه يمكن القول بأن أفكار هذين الرائدين لم تكن لتلقى النجاح الذى لقيته لولا وجود نفس التيار الذى عبرا عنه وإن تكن قد لقيت قدرا غير قليل من المعارضة التى استغلتها بعض الفئات ذات المصالح السياسية الضيقة فى تأليب الجماهير على دعوتهما خاصة وأن محمد عبده اصطدم بالخديو عباس الثانى الذى كان له أنصار فى الدوائر الأزهرية وتصدى له محمد عبده حين تفتحت شهيته لأراضى الأوقاف، ومن ثم استند محمد عبده إلى اللورد كرومر للضرب علي يد الأوتوقراطية الخديوية ومحاولة كرومر الاستناد إلى تلامذة محمد عبده الذين أطلق عليهم اسم « العقلاء » وهم الذين أسسوا حزب الأمة وآمنوا بالمبادىء والنظريات الأوربية الليبرالية ومن ثم إيمانهم بالتأنى والحيطة والعمل للوطن بمداراة الاحتلال مادام أنه لم يكن من الممكن زحزحته بالقوة. وكان أحمد لطفى السيد رئيس تحرير «الجريدة» هو أبرز تلامذة محمد عبده هؤلاء وطفق يقدم لقرائه الأفكار الغربية ويتصدى للاستبداد وانعكاساته المباشرة فى الأخلاق والفكر وينادى بالدستور والحريات والحكم النيابى والاحتكام الى العقل ولشدة تأثيره فى التقدميين من أبناء الجيل الجديد أطلق عليه لقب «أستاذ الجيل» .

ومن ناحية أخرى فإن تلميذا أخر لمحمد عبده هو رشيد رضا قد فسر أراء استاذه تفسيرا سلفيا. فحين تكلم محمد عبده عن السلف الصالح كان يقصد بوجه عام مؤسسى التقاليد الفكر الإسلامي من الرسول - ﷺ - إلى الغزالى، على حين أن رشيد رضا كان أكثر جمودا من أستاذه، ففسر السنية في اتجاه الحنبلية الصارمة واستمد الكثير من تعاليمه من ابن تيمية وتأثر بالغزالي وحاول أن يحدد مجال العقل الذى أطلق محمد عبده سراحه وذلك بزيادة المصادر الملزمة إلي حد كبير لتشمل عددا من الأحاديث إلى جانب القرآن وبإعادة مبدأ الإجماع الذى ارتبط بفترة الخلفاء الراشدين .

وهكذا كان «الأستاذ الإمام» الشيخ محمد عبده يمثل مدرسة متعددة الجوانب طور تلامذته بعض مبادئها حسب تصورهم الخاص ولعبوا دورهم فى إثارة النهضة الفكرية والدينية التى شهدتها مصر بوجه خاص فى القرن العشرين .

رأى الإمام محمد عبده فى الفن

إذا كنت تدرى السبب فى حفظ سلفك الشعر، وضبطه فى دواوينه، والمبالغة في تحريره، خصوصا شعر الجاهلية، وما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه. أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل، فإن

الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولايسمع، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى. إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة، ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية، يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا، والطمأنينة والتسليم، وهذه المعانى المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض، ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا، يصورونه مثلا فى حالة الجزع والفزع والخوف والخشية والجزع والفزع مختلفان فى المعنى، ولم أجمعهما ههنا طمعا فى جمع عينين فى سطر واحد بل لأنهما مختلفان حقيقة، ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع؟ وما الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك ؟ أما إذا نظرت إلى الرسم، وهو ذلك الشعر الساكت، فانك تجد الحقيقة بارزة لك، تتمتع بها نفسك، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك. إذا نزعت نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك: رأيت أسدا: تريد رجلا شجاعا، فانظر الى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسدا، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة، وشكر لصاحب الصنعة على الأبداء فيها .

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهى ما حكم هذه الصور فى الشريعة الإسلامية، إذا كان القصد منها ماذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية، أو أوضاعهم الجسمانية، هل هذا حرام؟ أو جائز؟ أو مكروه أو مندوب؟ أو واجب؟ فأقول لك :إن الراسم قد رسم والفائدة محققة لانزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان ، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة، وإما أن ترفع سؤالا الى المفتى وهو يجيبك مشافهة، فإذا أوردت عليه حديث: « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » ، أو مافى مامعناه مما ورد فى الصحيح، فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك أن الحديث جاء فى أيام الوثنية ، وكانت الصـور تتخذ فى ذلك العهد لسببين : الأول : اللهو والثانى: التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين، والأول مما يبغضه الدين، والثاني مما جاء الإسلام لمحوه، والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة، كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات، وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف، وأوائل السور، ولم يمنعه أحد من العلماء، مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر، وأما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات فى محل فيه صور طمعا فى أن الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات

على الأقل لا يدخل محلا فيه صور، كما ورد، فأياك أن تظن أن ذلك ينجيك من احصاء ما تفعل، فان الله رقيب عليك وناظر اليك حتى فى البيت الذى فيه صور، ولا أظن أن الملك يتأخر عن مرافقتك إذا تعمدت دخول البيت لأن فيه صورا !! ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة، فانى أظن أنه يقول لك أن لسانك أيضا مظنة الكذب، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟!

وبالجملة، فإنه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من وجهة العمل. على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها، والا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء، أو ماسماهم بعضهم بالأولياء، وهم ممن لا تعرف لهم سيرة، ولم يطلع لهم أحد على سريرة، ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد، ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه، ويظنون أنها أسرع إلى إجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى، لا شك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد، ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعانى العلمية وتمثيل الصور الذهنية .

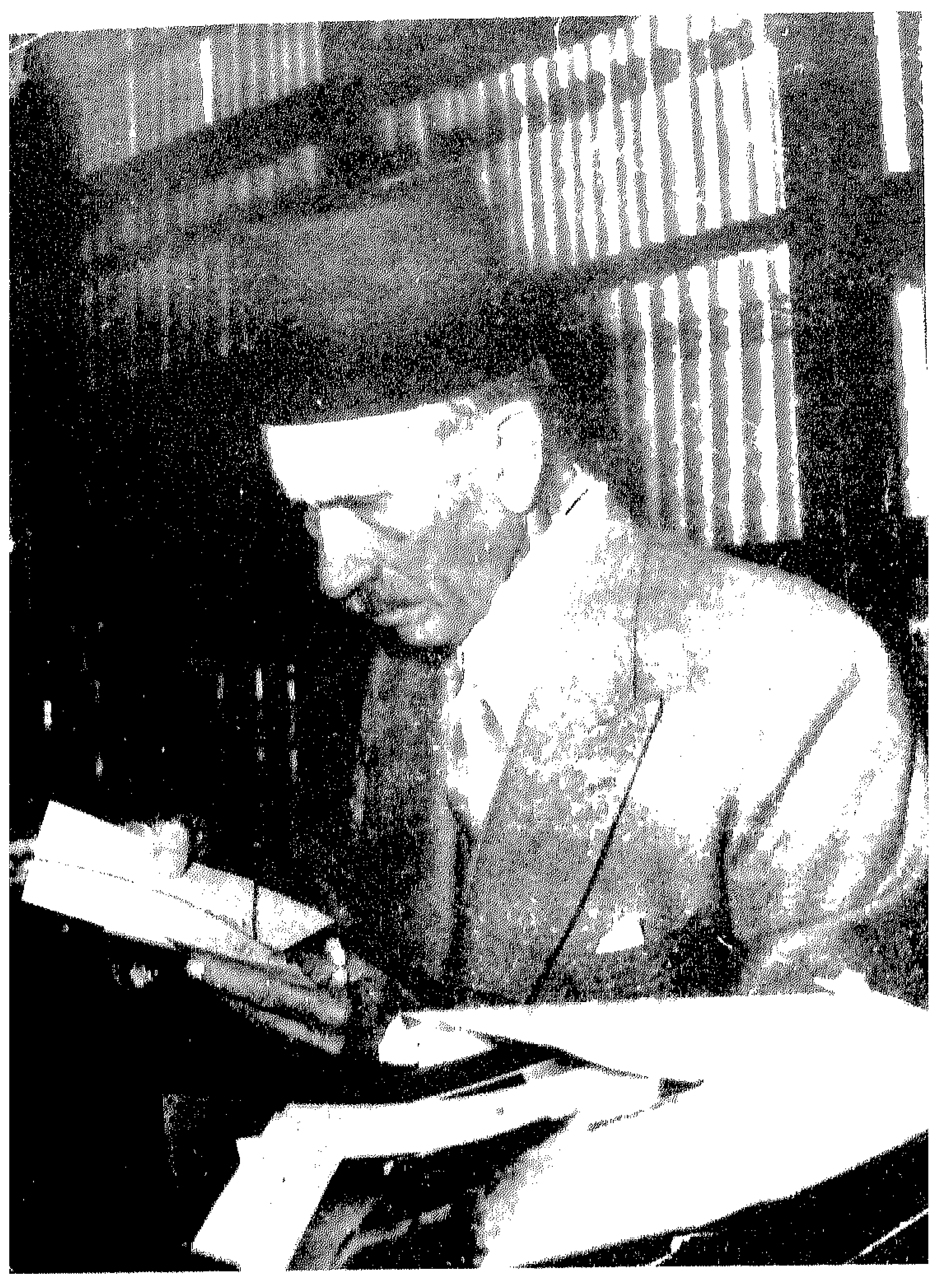
لو نظرت إلى ما كان يوجب الدين علينا أن نحافظ عليه لوجدته كثيرا لا يحصى عده، ولم نحفظ منه شيئا، فلنتركه كما تركه من كان قبلنا، ولكن ما نقول فى الكتب وودائع العلم هل حفظناها كما كان ينبغي أن نحفظها ؟ أو أضعناها كما لا ينبغى أن نضيعها ؟ ضاعت كتب العلم وفارقت ديارنا نفائسه، فإذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر أو مؤلف فاخر أو مصنف جليل أو أثر مفيد فاذهب إلى خزائن بلاد أوربا تجد ذلك فيها. أما بلادنا فقلما تجد فيها إلا ما ترك الأوربيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والأدبية والعلمية، وقد نجد بعض النسخ من الكتاب فى دار الكتب المصرية مثلا وبعضها الآخر فى دار الكتب بمدينة «كمبردج» من البلاد الإنجليزية. ولو أردت أن أسرد لك ماحفظوا وضيعنا من دفاتر العلم لكتبت لك فى ذلك كتابا يضيع كما ضاع غيره وتجده بعد مدة فى يد أوربى فى فرنسا أو غيرها من بلاد أوربا ! !

نحن لا نعنى بحفظ شيء نستبقى نفعه لمن يأتى بعدنا، ولو خطر ببال أحد منا أن يترك لمن بعده شيئا جاء ذلك الذى بعده أشد الناس كفرا بتلك النعمة، وأخذ فى إضاعة ما عنى السابق بحفظه له، فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا، وإنما الذى يتوارث هو ملكات الضغائن والأحقاد تنتقل من الآباء إلى الأولاد حتى تفسد العباد، وتخرب البلاد، ويلتقى بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد.

أحمد لطفى السيد

(١٨٧١ - ١٩٦٣)

الأب الروحى للجامعة المصرية



● أحمد لطفى السيد

المكان الشاغر أمام جامعة القاهرة ومنذ زمن طويل، من المفروض أن يجمله تمثال للأديب والمفكر الكبير أحمد لطفي السيد لما قدمه للجامعة من فضل لا ينكره أحد ، ولا ينبغى أن يؤجل الاحتفاء بلطفى السيد وننكر فضل الرجل على الجامعة المصرية ورجالها فهو أحق الناس بوضع تمثال له على هذه القاعدة الشاغرة .

خلع عليه لقب « أستاذ الجيل » نتيجة لتأثيره فى نخبة من المصريين الذين لعبوا دورهم في تطوير الفكر العصرى عن طريق إدخال بعض المفاهيم الغربية عليه خاصة وأنه قام بترجمة كتاب « السياسة » - الذى ألفه أرسطو الى اللغة العربية وكان أول مدير للجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) - التي لعبت دورا مهما ليس فقط بالنسبة الى مصر بل أيضا بالنسبة لكثير من الأقطار الغربية .

وقد ولد أحمد لطفى السيد فى عام ١٨٧١ وكان والده - سيد بك أبو على - من كبار ملاك الأراضى فى الدلتا ، وقد تلقى تعليما تقليديا فى كتاب قريته « برقين » ثم فى المدارس الأميرية ، وبعد أن أتم دراسته الثانوية شغل بعض الوظائف

الهامة فى النيابة العامة ثم انخرط فى سلك المحاماة ورأس تحرير « الجريدة » التى كانت لسان « حزب الأمة » الذى تأسس فى سبتمبر ١٩٠٧ وكان مناوئا للزعيم مصطفى كامل والحزب الوطنى وكان ظهوره راجعا الى تشجيع الدوائر الانجليزية ، وتفسير الصلة التى قامت بين حزب الأمة والاحتلال : إن كرومر كان يستغل برم بعض الأغنياء وغيرهم من المعتدلين فى نظرتهم الى الاحتلال متوسما فيهم الوقوف فى وجه الاوتوقراطية الخديوية . وطبقة كبار الملاك المصريين الذين أسسوا حزب الأمة هم الطبقة التى كانت قبل الاحتلال لا يقام لها وزن ، فلما جاء الاحتلال أوسع لها وصادقها فانحازت اليه وهادنته وناصبت الخديو العداء . والمثقفون من أبناء هذه الطبقة كانوا قد تشبعوا بالمبادئ والنظريات الليبرالية ، كما تشبعوا بتعاليم جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ومن ثم إيمانهم بالتأنى والحيطة والعمل للوطن بمداراة الاحتلال مادامت تصعب زحزحته بالقوة . وعلى حين انشغل الحزب الوطنى بقضية الجلاء ومن ثم تهاونه بحقوق الشعب الدستورية حين هادن الخديو فإننا نجد أن محور نشاط حزب الأمة هو بناء الأفراد بناءً قويا واجتماعيا – فهو يؤمن بأن الاستقلال التام لا يتحقق إلا بالكفايات الأخلاقية والعلمية والزراعية والصناعية والتجارية

والقضائية واشتراك الأمة مع الحكومة فى الأعمال العامة ومساندة التعليم العام .

وعلى حين أن « اللواء » - لسان حال مصطفى كامل والحزب الوطنى - قد اشتركت مع « الجريدة » - لسان حال حزب الأمة - فى طلب الدستور والاستقلال ، فإن « اللواء » كانت تدعو الى هذا الاستقلال مشوبا بروح الجامعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية ، على حين رفضت « الجريدة » الفكرة القائلة بأن بإمكان مصر أن تحصل على الاستقلال بمساعدة تركيا أو فرنسا - إذ لا سبيل إلى حرية المصريين إلا بجهودهم وحدهم - ومن هنا محاولتها إنماء الشخصية المصرية بقدر المستطاع والنظر الى الأمور السياسية من زاوية مصر وحدها والرد على مزاعم الانجليز حول الدين الإسلامى والطبيعة المصرية ، والعمل على النهوض بالحركة العقلية والأدبية وإفساح المجال للشباب لكى يظهروا مواهبهم ، وحين طالبت « الجريدة » بالدستور ناقشت العيوب التى ورثها المصريون عن خضوعهم الطويل للاحتلال والطغيان وشنت حملة شديدة على الاستبداد وانعكاساته المباشرة فى الأخلاق والفكر ونددت بالقصر والانجليز معا ، مستوحية مصلحة المصريين وحدهم - وهكذا فحين طالبت بالدستور كانت تعده ضمانا ضد ظهور الاستبداد .

وقد اتهمت « الجريدة » بممالأة الانجليز بالرغم من مناداتها بسلطة الأمة ومطالبتها بالدستور والحريات الفردية ، ومن ثم عدم تأييدها لسلطة الخديو ولسلطة الاختلال فى الوقت الذى لم تؤيد فيه تبعية مصر للدولة العثمانية وأبدت مناوأتها لحركة الجامعة الإسلامية ، ومن الطبيعى أن يمقت الخديو عباس « الجريدة » ويبذل كل ما فى وسعه للقضاء عليها وأن يبدى هو وأنصار مصطفى كامل - الذى كان ينادى بضرورة توثيق علاقات مصر بدولة الخلافة - كراهيتهم للطفى السيد وأن يتهموه بما يسئ الى سمعته الوطنية ، بل لقد تعرض للمحاكمة مما جعله يتراجع عن مقال طالب فيه باستقلال مصر التام وهو ما عُد خروجا على وضع مصر « الشرعى » ودعوة للانفصال عن الدولة العثمانية .

وفى عام ١٩١١ غزت إيطاليا طرابلس الغرب وبرقة اللتين كانتا تابعتين للدولة العثمانية - وحينئذ وقفت الحكومة المصرية من هذا الحدث موقفا سلبيا ، فتركت معالجة هذه المشكلة فى يد الإنجليز ، وقد أبدى المعتمد البريطانى لورد كتشنر رأيه الخاص بأن إيطاليا قد اعتدت على الدولة العثمانية مما أدى الى قيام حركة لجمع التبرعات للدولة العثمانية بقصد إعانتها على الحصول على نفقات الحرب . وقد لقيت هذه الدعوة آذانا

صاغية من الجميع وشارك الكثيرون فى التبرع . وطالع لطفى السـيد قراءه بثلاث مقالات نشرتها له الجـريدة تحت عنوان « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » ودعا فى هذه المقالات المصريين الى التزام الحياد المطلق فيما يتعلق بالحرب الإيطالية - العثمانية وعدم بعثرة أموالهم فيما لا تجنى منه بلادهم أية فائدة ، وذكرهم بأنه من الأفضل لهم أن ينفقوا هذه الأموال فى مصلحة مصر بإنشاء المرافق التى تنفع المصريين ، وقد أثارت هذه المقالات حملة عنيفة ضد لطفى السيد الذى تعرض للطعن الجارح مما اضطره الى السكوت بعد أن فشل فى إقناع أصدقائه من السياسيين أعضاء حزب الأمة بمساندة موقفه - بل لقد جارى الحزب الرأى العام المصرى فيما يتعلق بالحرب الإيطالية - العثمانية .

بين الجامعة والوزارة

وقد انضم لطفى السيد فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الأولي الى سعد زغلول واختير عضوا فى الوفد الذى انتوى التوجه الي باريس للدعاية للقضية المصرية - وقيل حينئذ إن له تأثيرا قويا على سعد زغلول وأنه شجعه على اصطناع التطرف.. وفى سبتمبر ١٩٢٠ كان أحد المندوبين الأربعة الذين أوفدهم الوفد الى مصر لشرح المشروع الذى وضعته لجنة ملنر بالاتفاق مع سعد فى لندن - ولكنه ما لبث أن انفصل عن سعد وانضم الى حزب الأحرار الدستوريين ولو أن زعيم الوفد قد عده من الوطنيين وذلك فى الخطبة التى ألقاها بمناسبة « عيد الجهاد » (١٣ نوفمبر ١٩٢٦) .

وفى عام ١٩٢٥ عين مديرا للجامعة المصرية ، ثم تولى وزارة المعارف فى وزارة محمد محمود (يونية ١٩٢٨ - أكتوبر ١٩٢٩) وكان على علاقات وطيدة مع دار المندوب السامى البريطانى - وقد استقال من منصب مدير الجامعة المصرية على أثر اشتراكه فى وزارة محمد محمود ، ويبقى المنصب

شاغرا ليعود الى شغله في يوليه ١٩٣٠ ، حين تولى إسماعيل صدقى رئاسة الوزارة ، ولكنه لم يلبث أن استقال من جديد فى ديسمبر ١٩٣٢ ، وذلك احتجاجا على فصل حكومة صدقى لـ « طه حسين » من وظيفته الجامعية . وفى ديسمبر ١٩٣٤ رشحه توفيق نسيم مديرا للجامعة للمرة الثالثة - ورغم المعارضة الشديدة التى أبداها الملك فؤاد فيما يتعلق بتعيينه فقد عاد الى منصبه الجامعى فى آخر ابريل ١٩٣٦ .

ورغم مختلف المناصب التي تقلدها بعد ذلك - ومنها شغله وزارة الخارجية - فإن شهرته لم ترتبط بهذه المناصب بل بالأثر العميق الذى تركه فى الفكر المصرى الحديث - فهو باحث له إسهاماته الثقافية (ومن ذلك ترجمته لأرسطو) التى نقلها عن اللغة الفرنسية التى كان يتقنها - فقد اطلع لطفى السيد على الكثير من أمهات الكتب واستوعب ما احتوت عليه وأثبت فى السياسة أنه أبعد ما يكون عن الأنانية ولو أن آراءه التقدمية جعلت المسلمين المتشددين يتهمونه بالإلحاد رغم كونه مفكرا حرا لا يكتب إلا فيما يؤمن به .

ولقد شرّح لطفى السيد المجتمع المصرى وأبرز عيوبه وأوضح طريق النهضة السياسية مستلهما جان جاك روسو الذى ذهب الى أن الإنسان حر وخيِّر بطبيعته وأن المجتمع السيئ هو

الذي يفسده ويستعبده بفعل الطغيان الذى عزا هو اليه كثيرا من أدواء مصر بحيث أن إشراك الشعب فى الحكم هو - فى رأيه - الطريق الأمثل للقضاء على آثار الطغيان ، ولكن قبل أن تسير الأمة فى طريق التقدم يجب عليها أن تتخلص من شعورها بالضآلة فى مواجهة الحاكم وتتعلم الثقة بالنفس وألا تجعل من السلطة مثلا أعلى ، فتتعود على ممارسة مستلزمات الاستقلال بحيث تتلقن السلوك الدستورى قبل أن تقيم حكومة دستورية - إذ لا يبرز الحكم المطلق إلا اذا كان طابع الأمة يشجع على ظهوره .

وبالإضافة الى تزويد لطفى السيد للقومية المصرية بأيديولوجية متميزة فإنه غرس فى السياسة روحا عملية لم تلبث أن أصبحت من مميزات مجموعة من الساسة العمليين ، كما أنه جعل الفكر منسلخا عن التقاليد التى أحل العقل محلها ، وبفضل الدراسة العميقة والفهم الواسع الأفق والإدراك الشامل الذى تميز به لطفى السيد استطاعت « الجريدة » أن توسع أفق الثقافة المصرية بمزجها بالثقافة الغربية ونقلها آراء الكتاب والمؤلفين وفقهاء الدستور والعلوم السياسية من الغرب الى مصر . كما أثارت تصورا جديدا للحكم ونظمه وعلاقة الحكومة بالأفراد على أسس علمية تستند الى أفكار علمانية لا الى

أفكار دينية ، وللطفى السيد الفضل الأول فى تحويل الحركة الوطنية المصرية نحو الوجهة الديمقراطية ذات الطابع العلمى المدروس ، فإلى جانب تعويده قراءه على تعابير الأمة والوطن المصريين واطلاعه على الشخصية المصرية عبر التاريخ ، فإنه عنى بتمصير القيم ، فجعل العادات والأخلاق والمناقب مصرية بعد أن كانت عربية أو إسلامية .

ولقد تكلمت « الجريدة » عن تحرير المرأة وتعليمها وعن حق الحكم النيابى المحلى للمديريات والمدن وعن حق التعليم بالنسبة إلى الجميع وحذرت من روح التواكل والعجز والاعتماد على الحكومة في كل شئ وحددت وظائفها على النحو الذى حدده الكتاب الليبراليون فى الغرب وعرضت لفكرة الجامعة الإسلامية وبينت أنها غير ملائمة للعصر ولا متفقة مع النمو الذاتى المستقل للشعب المصرى ونددت بالتهييج السياسى وما يتصف به أصحابه من خيال لا طائل تحته كان الأولى بأصحابه أن يوجهوه الى نواحى الحياة العملية النافعة فى المجالين الاجتماعى والاقتصادى بإقناع الإنجليز بالإصلاح بدلا من محاربتهم . ومعظم ذلك راجع الى عدم تأييدها تبعية مصر للدولة العثمانية الأمر الذى كان غريبا على الجمهور وإن لم يكن غريبا على الصفوة المتعلمة تعليما غربيا ممن كانوا يريدون

لمصر استقلالا وحرية وحياة نيابية ، وإن لم تكن « الجريدة » تحمل على الدين بل كانت تدعو الى تنقيته من الشوائب وفقا لما دعا اليه الأفغاني ومحمد عبده .

وملخص الأمر أن لطفي السيد من الشخصيات المؤثرة في تاريخ مصر الحديث : فهو كصحفي أثر في شخصيات من أمثال محمد حسين هيكل الذى أثرى المكتبة العربية بمؤلفاته التـــاريخية والصـــحفية (الجريدة - السياسة - السياسة الأسبوعية) وهو كجـــامعي أرسى التقاليد العلمية والجامعية وكانت له مواقف مشهودة في الدفاع عن طه حسين وعن حرية الفكر وليس عفوا أن يطلق اسم « أستاذ الجيـــل » على لطفي السيد وحده دون غيره من معاصريه .

عبـاس العقـاد

مؤرخا

١٨٨٩ - ١٩٦٤

● الكاتب الإسلامى عباس محمود العقاد

كان من لوازم العقاد حين يتصدى لترجمه العظماء أن يكد ذهنه بحثا عن « مفتاح الشخصية » وعن طبيعة الشعب الذى أنجب المترجم له : بحيث إنه خرج علينا ببحث عن « الشخصية المصرية » حين ترجم لسعد زغلول ، وعن طبيعة الهند حين ترجم لغاندى - إلى غير ذلك . والتركيز على « مفتاح » ما لشخصية ما يتضمن شيئا من التبسيط : إذ إن الشخصية الإنسانية - وبخاصة شخصيات العباقرة والعظماء الذين هم من التعقيد والتمرد على الأنماط العادية للحياة - من التنوع والثراء بحيث لا يصدق عليها مدخل واحد سواء أكان هذا المدخل نفسيا أم اجتماعيا أم فرديا ، أما الكلام عن طبيعة شعب ما ، تمهيدا لتجسيد هذه الطبيعة فى شخص ما ، فإنه من قبيل التعميم الذى ينحدر بالكاتب إلى متاهات قد تنحرف به عن المنهج العلمى السليم . وهذه المقدمة لا تعنى الغض من قيمة السير والعبقريات التى كتبها العقاد ، إذا ما وضعنا فى عين الاعتبار أنه قد أشار فى أكثر من موضع إلى أنه لا يقصد بتناول هذه السير والعبقريات أن يكتب « تاريخا » منهجيا بمعنى الكلمة .

وقد بدأ ميل العقاد إلى التراجم فى فترة مبكرة من حياته فلقد كان والده من أنصار الثورة العرابية ، فتعلم الأبجدية وكتابه الحروف الأولى وهو يرى بين يديه أعداد « الأستاذ » وغيرها من مجلات عبدالله نديم ، ومعها أعداد قليلة من « أبو نضارة » و « العروة الوثقى » ونشرات الثورة التى كانت توزع فى الخفاء . وكان يسمع باستمرار أخبارا فى سير الكتاب الذين يصدرون هذه الصحف ، ولا سيما عبدالله نديم . ومن هنا أصبحت تراجم العظماء بالنسبة إليه معرضا لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة ، وكان موضوع التراجم والسير التاريخية أو الأدبية أهم موضوعات التأليف لديه .

يضاف إلى هذا أن أوروبا - فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين - كانت تموج بكثير من النظريات المستحدثة التى انتقلت إلينا مع نمو حركة الترجمة هناك - مثلا - نظرية التطور التى ذهبت إلى أن الإنسان الحالى ليس سوى مرحلة من مراحل تطور البشرية صوب « إنسان أعلى » حاول نيتشة أن يحدد أبعاده موحيا بفلسفة القوة ، فى الوقت الذى أثرت فيه نظرية التطور في مجالات متعددة من العلوم والحياة ، بحيث ظهر من يمجد الحرب وينادى بغلبة شعب على غيره لأسباب بيولوچية وذهنية . وراح توماس كارليل يمجد الأبطال

والبطولة ، ويذهب إلى أن التاريخ إنما هو سجل لسير العظماء : منذ أن كان العظيم إلهاً فنبيا ، إلى أن أصبح قائدا عسكريا وكاتبا ، وترجم كتاب « الأبطال وعبادة البطولة » إلى اللغة العربية ، كما ترجم مذهب دارون عن « النشوء والارتقاء » — وكان لذلك صداه في المثقفين العرب .

ويذكر العقاد في تقديمه « لعبقرية محمد » أنه — قبل نشر هذه السيرة بثلاثين عاما — جرت مناقشة ، اشترك هو فيها ، حول كتاب كارليل ، وأن المتناقشين أكبروا كارليل الذي أنصف نبي الإسلام ، واستقر رأيهم على أن الأولى بمسلم أن يكتب ترجمة لمحمد ، فوقع الاختيار على عباس العقاد ليقوم بهذه المهمة التي لم تمسح له ظروفه بإنجازها إلا بعد جيل كامل .

وكارليل ومذهب كارليل الخاص بالأبطال والبطولة يستحقان منا وقفة لها ما وراءها . فمع تقديرنا للبطولة والأبطال وللعظمة والعظماء إلا أننا نرى أن هذه البطولات لا تنشأ في فراغ بل هي جزء لا يتجزأ من تطور المجتمعات الإنسانية ، تكمن قوتها في تعبيرها عن حاجات مجتمعاتها قبل كل شئ ، وفي كونها طلائع لحركة التاريخ — دون أن تكون التاريخ ذاته .

وتفسير التاريخ باعتباره مجرد سير للعظماء إنما هو من مخلفات العصور الخرافية حين كان الإنسان يتحول إلى نمط معين عن طريق التكرار ، ومن ثم الذاكرة الجماعية ومحاولة البعض تقليد بعض سابقيهم . فالعامة لا يفهمون التاريخ ولا يعترفون به ، بل يحولونه إلى أساطير تتحول فيها الشخصيات الحقيقية إلى شخصيات خرافية : بطولية وملحمية . ولقد حاول الرجل البدائي أن يغفل التاريخ جهد الطاقة لأنه كان في نظره مضادا لفكرة التطور الخلاق المبتكر ، على حين أن الإنسان الحديث يتأثر بالتاريخ وبحركته العامة ، ناظرا إلى البطولة والأبطال نظرة ديمقراطية اجتماعية فى نطاق الطبيعة الإنسانية ذاتها وفى نطاق المفهوم المنطقى للتطور البشرى صوب الأمام – ولهذا لا نوافق على ما يذهب إليه العقاد من أن موازين الشعوب كثيرا ما تكون « أصدق من موازين المؤرخين فى تقدير مكان العظيم بين أبناء قومه ، ولا سيما حين تطبع تلك البداهة فى تعبيراتها الفطرية التى تجمع الكثير من المعانى فى القليل من الكلمات » . ولا داعى للخوض فى تفاصيل المعارك المعاصرة التي تبلورت حول « عبادة الفرد » ودور الفرد فى التاريخ .

تأثر العقاد إذن بمذهب كارليل تأثره بالنزعة الروحية فى تفسير التاريخ بالشكل الذى يبدو واضحا فى « عبقرياته »

و «تراجمه» التى هى الجانب الواضح ، وقد يكون الجانب الوحيد ، من التاريخ الذى ركز عليه العقاد .

وقد يكون مرجع هذا طبيعة العصر الذى عاشه ، وطبيعة شموخه وانفراديته واعتداده بذاته ، فالجماهير المصرية فى شباب العقاد كانت تسير منقادة وراء أبطالها وزعمائها الذين انحرف بعضهم بانحراف الجهد الوطنى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ ، فى الوقت الذى رفعت فيه شعارات الحرية والديمقراطية التى انحدرت فى الواقع إلى مستوى الديماجوجية والدجل السياسى .

لهذا لاندهش إذا ما وجدنا أن عددا من مفكرينا الجادين ، رغم إيمانهم النظرى بالحرية والديمقراطية فى تلك الفترة ، كانوا لا يهضمون الاتجاهات الجماهيرية كما كانت عليه . ولهذا اتجه الإيمان بالفرد المبرز إلى الحلول محل الإيمان بالجماعة والأمة والبشرية عامة . وقد عبر العقاد ذاته عن هذا الاتجاه بقوله : « وإيتاء العظمة حقها لازم فى كل آونة وبين كل قبيل ... ولكنه فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا ألزم منه فى أزمنة أخرى لسببين متقاربين لا لسبب واحد :

أحدهما : أن العالم اليوم أحوج ما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة ولن يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق معرض للجفوة والنكور .

والآخر : أن الناس قد اجتزأوا على العظمة فى زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها ... فان شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسا من صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة ، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التميز وتظلمهم المساواة ... هذه الآفة تهبط بالخلق الإنسانى إلى الحضيض . وتهبط بالرجاء فى إصلاح العيوب الخلقية والنفسية إلى مادون الحضيض - فماذا يساوى إنسان لا يساوى الإنسان العظيم شيئا لديه ؟ ... وأية معرفة بحق من الحقوق يناط بها الرجاء إذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف ... وإذا ضاع العظيم بين الناس ، فكيف لا يضيع بينهم الصغير ؟ » .

وهكذا فحين يترجم العقاد لطائفة من أعلام العروبة والإسلام ، نجده يسعى إلى إنصافهم وتوفير مثال وقدوة أمام الشباب ، وذلك لكى يترسموا خطواتهم - لهذا فهو لا يعنى فى الغالب بسير من يترجم لهم إلا بمقدار تحليل شخصياتهم ، واضعا نصب عينيه إبراز نواحى الكمال فيها على طريقة الكماليين من علماء الأخلاق ، ومن هنا فعبقريات العقاد وتراجمه ليست سيرا بالمعنى التاريخى المألوف ، وإنما هى صور أخلاقية قلما يحتفل فيها بالأحداث والوقائع . وفى هذا يقول فى تقديمه « لعبقرية محمد » :

« إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذى يبث به الحب فى قلب كل إنسان ، وليس فى قلب كل مسلم وكفى . فمحمد هنا عظيم لأنه قدوة المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس - عظيم لأنه على خلق عظيم » .

وفى هذا المعنى يقول فى تقديمه لعبقرية عمر » :

« كتابى هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التى نقصد بها الحوادث والأنباء ، ولكنه وصف له ودراسة لأطواره ودلائل على خصائص عظمته واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة » .

وفى تقديمه لكتابه عن « المهاتما غاندى » يقول إنه لا يقصد إلى كتابة سجل حوادث ولا تقويم أيام ، ولكنه يقدم « مرآة صغيرة يبدو فيها مناط العظمة من « مهاتما الهند » وهو الروح العظيم » .

والآفاق الإنسانية - لدى العقاد - واسعة وأغوارها عميقة ، ومداها من الزمن بعيد ، ومن واجب كل إنسان أن يذرع هذه الآفاق وأن يسبر هذه الأغوار وأن يبسط الرجاء على هذا المدى البعيد - لا لأنه يعلم سيرة هذا الإنسان وحسب ، ولا لأنه يحيط بتاريخ هذه الأمة وكفى ، ولكن لأنه يحقق معناه ويبلغ به كماله ، كلما عرف غاية من الغايات التى تنتهى إليها طاقة الإنسان .

وليس أعون على ذلك – في رأيه – من سير العظماء ، لأنهم يتماثلون ويتناقضون ويعرضون لنا ألوانا من القدرة وأنماطا من الفطرة ، وكلهم بعد ذلك على خلق عظيم .

وهو يرى أن القاعدة في اختيار ترجمة ما للكتابة فيها أن تكون كتابتها لازمة لإبراز حق ضائع أو حقيقة مجهولة ، تستوى في ذلك سير العظماء والنوابغ من كل طراز وفى كل طبقة من طبقات العظمة والنبوغ : « فالحافز الأكبر على تأليف كتابى عن ابن الرومى أنه مجهول القدر منحوس الحق يصطلح على بخسه والنزول به عن قدره جهل النقاد وظلم الأغراض والأهواء » .

وقد يختار للترجمة عظماء الفرصة – كمعاوية بن أبى سفيان – الذين بلغوا بالحيلة مالم يبلغوه بالقدرة الخالصة ، وتوسلوا إلى منافعهم في أزمتهم بتلك الوسائل المكيافيلية : « فان الغرض الأول من الترجمة التاريخية أن يعرف الناس الفارق بين حق الفرصة فى زمن من الأزمان ، وحق القدرة فى كل زمن . ومع اختلاف الفرص وعوارض الظروف ، فلا ينبغى أن يأخذ عظيم الفرصة من التاريخ فوق ما أخذه من منافع عصره ، وبخاصة حيث يكون حكم التاريخ الكاذب جورا على خصومه وتغطية لنقائص عصره ، ولست أجد في نفسى باعثا

قويا للكتابة عن العظماء الذين أتيحت لهم الفرصة والعظمة معا فاستحقوا المجد الذى نالوه ، ولكن بشيئ من المبالغة العاطفية أو مبالغة الظروف ومناسبات الحوادث . ولهذا أفضل الكتابة عن عبقرية خالد على الكتابة عن عبقرية صلاح الدين .. لان إنصاف صلاح الدين لا يحتاج إلى مزيد » .

واضح أذن أن هدف العقاد من كتابة سيره إنما هو هدف أخلاقى صرف ، وهو نهج عرضة للنقاش وللنقد من جانب من يهدفون إلى إبراز الحقيقة التاريخية مجردة عن كل اعتبار إلا مطلق المعرفة الإنسانية ، وما لها من أغراض ضمنية تهدف إلى مزيد من التطور . وهو يذهب إلى أنه يهدف من كتابة تراجمه إلى « إحياء الثقة بالروح الإلهى الخالد من لوثة المادة ومهانة الإنكار العقيم ، أو مهانة كل اعتقاد وخيم يغلب عليه عامل السلب والنفى على عامل الثبوت والايجاب » .

على أن للتربية الأخلاقية وسائل أخرى : كالقصص والسلوك الاجتماعى السليم ، والقدوة الحسنة ، ومثاليات الأديان، وطقوسها ، والثواب والعقاب وغير ذلك من العوامل التى تصقل الشخصية وتنميها . أما التركيز على جانب واحد من جوانب التاريخ خدمة لأهداف مباشرة فهو سلاح ذو حدين ، إذ إنه يقدم للقارئ ، كبيرا وصغيرا ، أنماطا غير إنسانية لا تتحرك إلا فى عالم آخر غير عالمنا هذا .

ومن أمثلة ذلك أن العقاد حين كتب عن سعد زغلول حاول أن يدافع دفاعا مكشوفا عن دوره فى اقتراح مد امتياز قناة السويس الذى عرض على الجمعية العمومية فى عام ١٩١٠ ، ومرة أخرى حين تصدى للدور الذى قام به فيما يتعلق بقانون المطبوعات أيام وزارة بطرس غالى التى اشترك فيها .

وربما كان للعقاد عذره في اتباع هذا المنهج إذا ما وضعنا فى عين الاعتبار طبيعة ظروفه الخاصة وطبيعة اللجج الذى ساد السياسة المصرية فى أيامه . بل إننا لنذكر غضبته الكبرى قبيل وفاته حين تطرف البعض فى القدح فى محمد عبده ، وسعد زغلول . وحينئذ التزم موقف الدفاع عن قداسة الزعامة فى شخصى محمد عبده وسعد زغلول .

ومما قد يفسر عنف ثورته في هذه المناسبة وفى مناسبات أخرى أنه كان انفعاليا بوجه عام ، وبخاصة فيما يختاره وما يكتبه - ويذكر هو أنه ربما كان يكتب الفصل وعيناه مغرورقتان، كما حدث فى كتاب « أبى الشهداء » ، وأنه ربما كتب المقال وفى نفسه مغالبة عنيفة للبكاء ، كما حدث فى مقالات الرثاء للمازنى ، والنقراشى ، وغاندى ، وسعد زغلول .

والاسلوب الانفعالى فى كتابة التاريخ والسير قد يتضمن نأيا عن المنهج العلمى السليم ، إذ المؤرخ ليس من اختصاصه

أن يوزع موازين العدالة بالشكل الذى يريد ، ولا أن يغلب انفعالاته فى الحكم على الاحداث والشخصيات إلا إذا كان انفعالا لموقف عام لا يستطيع المؤرخ بصدده إلا أن يكون بشرا ، بشرط ألا يكون الانفعال هو الأسلوب الوحيد للتقييم .

على أن مرجع انفعالية العقاد هو أنه لم يتلق تعليما نظاميا بمعنى الكلمة ، مما جعله يتقد حماسة لكل ما يكتشف جدته ، ثم يعود فيحول ذلك إلى رياضات هدفها تثقيف الذات ، ضاربا بنفسه المثل لقرائه .

وإذا كنا قد قصرنا ملحوظاتنا هذه على سير العقاد وعبقرياته فانها تصدق بوجه عام على الدراسات الأخرى التى من الممكن أن تتصل بالتاريخ من قريب أو من بعيد فيما كتبه العقاد : « أثر العرب فى أوروبا » و« ديمقراطية الإسلام » و« الله » .... الخ الخ وهى مؤلفات يغلب عليها طابع الدفاع أو التبرير أو الإنصاف ، شأنها فى ذلك شأن السير والعبقريات.

وما دام العقاد قد شرح منهجه فى كتابة هذه الصور التاريخية فان المؤرخ لا يسعه إلا أن يصدر حكمين بهذا : حكم على كتابات العقاد فى حد ذاتها ، وحكم يتصل بما كشفه العقاد عن هدفه من كتابتها . وهو إذ يعترض على ابتسار التاريخ خدمة لأغراض محددة على حساب الحقيقة الموضوعية

الكاملة ، يقدر مثالية العقاد وقصده الأخلاقى والتربوى ويشيد بكتاباته التاريخية التى أثرت المكتبة العربية وأضاءت جوانب متعددة من حياة رجال مرموقين كنبى الإسلام . وعمر ، وأبى بكر ، وعلى ، وخالد بن الوليد ، والشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وغاندى ، وصن يات صن ، وشكسبير ، وبرناردشو ، وبنجامين فرنكلن ، وابن الرومى ، ومعاوية – وغير ذلك .

وهو في دراساته هذه يفرق بين من يسميهم بالعباقرة وبين من يسميهم بالأفذاذ أصحاب الامتياز ويقول فى تفصيل هذه التفرقة ما يأتى :

« ربما وصف الرجل بالقدرة لانه مقتدر على بلوغ مقاصده واحتجان منافعه والاضرار بغيره ، ولكنه إذا وصف بالعظمة فإنها يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة ، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه . ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة إلى التقدير والتعظيم . فنحن نقدر الإنسان بمقداره عظيما كان أو غير عظيم ، بل نقدر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ولا من وراء العمل نية . ولكننا إذا عظمنا الإنسان فإنما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التى تلحظها الإنسانية بأسرها وتعود عليها

منافعها وخيراتها ، فكل عظيم قدير ، ولكن ليس كل قدير بالعظيم . والعظمة قدرة وزيادة ، أما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة ، فضلا عن أن تكون عظمة وزيادة » .

وأخيرا فإذا كان العقاد قد غمط حق المؤرخين والنقاد على إطلاقهم ، قائلا :

« فمثلا أقرأ فى حياة نابليون أكثر من أقوال ثلاثين كاتبا ، وأنا واثق من أن كل نابليون من هؤلاء هو غير نابليون الذى وصف في كتب الآخرين » ، مشككا فى مدى ذاتية الكتاب والمؤرخين ، فإننى اشترك مع من يذهبون إلى الحكم على العقاد بأنه من الشخصيات التاريخية التى ستظل عالقة بالأذهان حين يؤرخ المؤرخ والكاتب لتاريخ الفكر العربى والحياة السياسية العربية فى جيل العقاد . قد يختلفون حول تقييمه الكلى ما بين مادح مفرط وقادح مفرط ، ولكهنم لن ينكروا بصماته الواضحة ، سلبا وإيجابا ، على صفحات تطورنا الفكرى الحديث والمعاصر .

الدكتور

محمد حسين هيكل

من رواية «زينب» ..إلى مذاكرت فى السياسة المصرية

١٨٨٨ ـ ١٩٥٦



● الدكتور محمد حسين هيكل

ربما لم أتأثر بكاتب مصرى مثل تأثرى بعلمين بارزين من أعلام حياتنا الفكرية هما الدكتور محمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم . فلدى التحاقى بالجامعة طالعت كتاب هيكل «حياة محمد» الذى هزنى هزا ومضى بى فى طريق الشك الديكارتى نتيجة لطريقته فى العرض التى لم تتمسك بالروايات الموروثة بل عمدت إلى التحليل والاحتكام إلى العقل . وكان ذلك بداية إعجابى به وسعيى إلى الاطلاع على كتبه الأخرى : الصديق أبو بكر - الفاروق عمر - شخصيات مصرية وغربية - جان چاك روسو - ومذكراته فى السياسة المصرية .. الى غير ذلك . فقد كان أديبا كبيرا الى جانب كونه مؤرخا ومن دلائل ذلك انه الف قصة «زينب» التى سجلت بداية القصة العربية الحديثة . فقد تفتح ذهنه فى بداية تكوينه الفكرى نتيجة لميله الشديد لدراسة الأدب العربى قديمه وحديثه بقدر ما يسمح له ادراكه ، وحين اتصل بأحمد لطفى السيد فى أوائل القرن العشرين عدل عن الاكتفاء بقراءة الأدب العربى واتجه إلى قراءة كتب إنجليزية فى الموضوعات التى كان يحدثه فيها، هذا بالإضافة إلى أنه - وهو قطب من أقطاب حزب الأمة - قد نحا به

نفس منحاه السياسى الذى لم يكن يعتمد تملق الجماهير واللعب على عواطفها .

ومما أثر فى الدكتور هيكل وتفكيره السياسى أنه انحدر من أسرة تنتمى إلى أعيان ريف الدلتا مما مكنه من الانخراط فى دائرة النخبة الاجتماعية التى تصدرت الحياة العامة واهتم المستنيرون من رجالها بتعليم أبنائهم تعليماً عصرياً فى الداخل والخارج وخلال دراسته الثانوية تأثر بمنهج الشيخ محمد عبده الداعى إلى فتح باب الاجتهاد والتوفيق بين العلم والدين والاحتكام إلى العقل وإطراح المعتقدات البالية التى حملها مسئولية تأخر المسلمين . ولما كان محمد عبده يهدف إلى الضرب على يد الأوتوقراطية الخديوية فقد هادن الإحتلال البريطانى وركز على التعليم والإصلاح الداخلى باعتبارهما الأداة المثلى لتحقيق الإستقلال - وفى عام ١٩٠٥ هاجم فى جريدة «المنار» الاجراءات العنيفة التى اتبعها محمد على فى سبيل توطيد حكمه مما اثار الرهبة والخوف فى قلوب المصريين وجعلهم اميل الى الاستكانة . ورغم مالقيته دعوة محمد عبده من مقاومة وبخاصة من جانب الخديو عباس الثانى فقد ازداد اعجاب هيكل به مما جعله يقرأ كتابه «الإسلام ولنصرانية» وكتاب استاذه الافغانى فى «الرد على الدهريين » ، كما قرأ المقالات التى كتبها محمد عبده فى «العروة

الوثقى» وتأثر هيكل بحادثتى طابة ودنشواى . فقد نشب نزاع بين بريطانيا والدولة العثمانية فى عام ١٩٠٦ حول موقع طابة : هل هو تابع لمصر أم للدولة العثمانية ، ولدهشته وجد أن مصطفى كامل يدافع عن تبعية هذا الموقع للدولة العثمانية صاحبة السيادة الاسمية على مصر مما جعله لا ينخرط فى سلك المعجبين به برغم انجذاب زملائه فى المدرسة الثانوية اليه مما أدى إلى تفضيله للعزلة - ويعترف هو فى مذكراته بأنه فى أكثر اطوار حياته وقف فى غير الجانب الذى كان عليه الجمهور . أما حادثة دنشواى التى ظهر فيها الاحتلال البريطانى فى صورته الحقيقية فقد هزت أعماق هيكل كما هزت أعماق سائر المصريين الذين أدركوا حقيقة بشاعة الاحتلال الأجنبى .

إعجاب بقاسم أمين

ورحب هيكل بصدور كتاب « تحرير المرأة» الذي ألفه قاسم أمين وطالب فيه بتعليم المرأة ورفع الحجاب عنها مما أثار عليه الهيئات الدينية وأحدث اضطراباً فى دوائر المثقفين . وقد اقتنع هيكل الشاب بأن قاسم أمين على حق وعجب لموقف الذين هاجموه وبدأ يشعر بأن متابعة الجماهير هى الطريق السهل وإن أدت أغلب الأحيان إلى الخطأ ، وازدادت عزلته عن زملائه فى الدراسة كما ازداد إيثارة للصمت بحيث لا يعارضهم ولا يجاريهم أو يتابع

زعماءهم . وبعد أن أتم دراسة الثانوية التحق بمدرسة الحقوق . وحين وجد أن كثيراً من زملائه يتشيعون لمصطفى كامل وحزبه الوطنى لم يشأ أن يجاريهم قبل أن يتبين الحقيقة من أمره ، فعكف على مطالعة جريدتي «المؤيد» و«اللواء» لعلهما تعينانه على تحديد موقفه ، وفى النهاية قرر أخذ جانب أحمد لطفى السيد وحزب الأمة الذى اشترك فى تأسيسه خاصة أن هيكل كان يمت اليه بصلة القرابة . وقد عبر لطفى السيد عن اتجاهات مثقفى حزب الأمة فى «الجريدة» التى ناصرت تحرير المرأة ورفع الحجاب عنها ودعت إلى حق الحكم المحلى للمديريات والمدن وعن حق التعليم للجميع وحذرت من الاعتماد على الحكومة التي صورت وظائفها وفقاً لما نادى به الكتاب الأوربيون الذين يتمسكون بالحريات جميعاً . وقد كتب هيكل فى الجريدة لدى صدورها فى عام ١٩٠٧ ونفى عنها ممالأتها للأنجليز وذهب إلى أنها كانت تطالب بالدستور .

وفي عام ١٩٠٩ توجه إلي باريس للحصول على درجة الدكتوراه وهناك لمس حرية العقيدة والرأى واحس بأن التعصب ذميم وأن أول واجب على الإنسان هو أن يديم البحث عن الحقيقة . وقد اجتذبته دراساته وحياته الجديدة مما جعله لا يكتب كثيراً فى «الجريدة» وبالتالي اقتصرت كتابته إليها على بعض ملاحظات مما كان يراه فى «مدينة النور» وفى عام ١٩١٢ حصل على درجة الدكتوراه

برسالة عن «دين مصر العام» وهو الموضوع الذى جعله يقرأ كل ما كتب عن مصر الحديثة منذ عهد محمد على سواء باللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو العربية . وقد تلقن أثناء دراسته مناهج البحث العلمى الحديثة فسعى إلى تقصى الحقيقة ما استطاع - وكان لكل ذلك أثر كبير فى اتجاه تفكيره فى سياسة مصر ، وحين عاد إلى مصر اشتغل بالمحاماة وكان يكتب «للجريدة» التى عطلها كتابها وحزب الامة فى عام ١٩١٥ بعد نشوب الحرب العالمية الأولى . ثم اتفق هيكل مع بعض أصدقائه على إصدار جريدة «السفور» الأدبية والاجتماعية التى لم يكن لها دخل بالسياسة وقد كتب فيها كثيراً كما كتب فى «المقتطف» منذ أول عام ١٩١٧ وشرع فى تأليف كتابه عن جان جاك روسو : حياته وكتبه . وفى أعقاب ثورة ١٩١٩ انضم إلى الحزب الديمقراطى الذى قامت مبادئه على الحرية والحق والعدل ومبدأ تقرير مصير الأمم واستقلال مصر . وكان بعض اعضاء هذا الحزب قد تأثروا بالمبادئ الاشتراكية خاصة وإن أفكار الدولية الثانية لم تكن تختلف كثيراً عن أفكار الليبرالية . ولكن هيكل رأى أن قضية الاشتراكية لن تطرح قبل سنوات طويلة وأعلن صراحة معارضته لتأسيس الحزب الاشتراكى فى الوقت الذى ندد فيه بالشيوعية التى ظل يمقتها حتى آخر حياته .

وبعد اصطدام سعد زغلول بعدلى يكن أبدى هيكل ميله إلى عدلى وانضم إلى حزب الاحرار الدستوريين وظل مخلصاً له إلى أن جرى حله فى أعقاب ثورة ٢٣يوليو ١٩٥٢ ، وبعد إنشاء جريدة «السياسة» لتكون الناطقة باسم حزب الأحرار الدستوريين تم اختياره رئيساً لتحريرها . ورغم أن «السياسة» انتحت فى البداية منحى الاعتدال فقد اتجهت بعد ذلك إلى رد التهم التى اتهمها بها الوفديون ودعت إلى الوحدة الوطنية وضم الصفوف ولو أنها قاومت طغيان الفرد الذى تجسد لدى الأحرار الدستورين في الزعيم سعد زغلول الذى هاجمته «السياسة» بسبب تجاوزات الوزارة التى ألفها فى عام ١٩٢٤ واتبعت سياسة حزبية صارخة واضطهدت خصومها. وكان هيكل يرى أن النضال الحزبى فى مصر منذ بدأ الخلاف بين سعد زغلول وعدلى يكن لا يقوم على المبادئ بل على فهم خاطئ لمعنى الحكم - فمن يتولى الحكم يعْمد إلى محاباة أنصاره ومحاربة مغارضيه. أما هو فانه يؤكد فى مذكراته أنه لم ينصر رأياً علي رأى ولا فريقاً على فريق .

مقاومة وزارة صدقى !

وكما تصدى هيكل لما اعتبره استبداداً من جانب سعد زغلول فقد اشترك مع الوفديين وغيرهم فى مقاومة وزارة إسماعيل صدقى التى تولت الحكم فى أوائل الثلاثينيات ونكلت بخصومه بعد تعديلها

لدستور ١٩٣٢ . وأسهم في تأليف كتاب «السياسة المصرية والانقلاب الدستورى» خاصة أنه كان يرى أن صدقي رجل يؤمن بالحكم وبانه الوسيلة الوحيدة لتحقيق ما يرجو الإنسان تحقيقه من خير بلاده . ونفس هذا الموقف تكرر بالنسبة إلى نزعات الملك فاروق الاستبدادية التى ندد بها هيكل فى الجزء الثالث من المذكرات والتى بذل جهوداً لمقاومتها اثبتها فى هذا الجزء فقد نزع فاروق بعد الحرب العالمية الثانية إلى الاستبداد خاصة أن حادثة ٤فبراير ١٩٤٢ – على حد قوله لهيكل – قد علمته «درساً لن ينساه» ولقد زين له المحيطون به سلوك هذا الاتجاه حين قالوا له إن أجداده هم الذين انشأوا مصر الحديثة من العدم وأنه «وارث هذا التراث المجيد وصاحب الرسالة ببعث الشرق كله وإتمام المعجزة التى حاولها جده محمد على ثم حالت الاقدار دونها» ثم ادى به هذا الاعتقاد وتملق المتملقين إلى الاستهتار والاندفاع مع أهوائه وعدم الاكتراث برجال دولته ، ومن ثم دعوته لزعماء الدول العربية إلى انشاص دون علم الوزارة القائمة واصداره الاوامر بإدخال الجيش إلى فلسطين في مايو ١٩٤٨ دون مشاورة الوزارة أو البرلمان .

وقد ارتبط مقت هيكل للاستبداد بالمبادئ التى أمن بها منذ شبابه المبكر : فهو ليبرالى أمن بالحرية والدستور وبأن الحكم وسيلة لاغاية وأن باستطاعة المعارضة توجيه شئون الحكم بالقدر الذى

تستطيعه الحكومة القائمة وأن الوصول للحكم أن لم يكن أساسه الكرامة الذاتية التامة يعهد اليه بتبعاته فخير منه البقاء فى المعارضة ، وفى مذكراته نجده يؤكد انها لا تعدو ان تكون تصويراً للحوادث كما وقعت ولاتجاهات الرأى المختلفة ، ورغم أن بعض الاشخاص الذين تناولهم كانوا على قيد الحياة لدى نشر الجزءين الاول والثانى من المذكرات فانه يجزم بانه لم يحابهم الا أن يكون قد أغفل بعض الحوادث التى رأى من واجبه إغفالها ،كما يقر بأن مذكراته لم تتناول الا ما شهده او شارك فيه من جوانب السياسة المصرية وانه لذلك أغفل الناحية الاقتصادية لأنه لم يكن له فيها حظ يذكر .

وهو يبين انه لم يقصد إلى التأريخ لمصر فى الفترة التى كتب عنها (١٩١٢-١٩٥٢) وشارك فى معظمها فى صنع السياسة المصرية ومعالجة قضاياها ،وقد بدأ كتابتها فى عام ١٩٤٨ وفرغ منها فى عام ١٩٥٠ . وكان هدفه من كتابتها أن تكون مرجعاً لمن يريد أن يؤرخ لتاريخ مصر خلال هذه الفترة وهو يجزم بان أحداً لن يستطع أن يؤرخ لعصر عاش فيه بحكم أن المعاصر قد لا يقف على كل الأسرار وانه لا يدون الا ما يعرف . ويذكر عن نفسه انه اكتفى بتصوير الحوادث كأدق ما يستطيع مشيراً إلى أن مما ساعده على ذلك انه بدأ يكتب مذكراته بعد انقضاء سنوات طويلة

على وقوع الحوادث التى دونها . وقد استملى الجزء الاول من هذه المذكرات من الذاكرة الا قليلاً رجع فيه الى الصحف لمزيد من الدقة فى التأريخ للأحداث وينفى ان الذاكرة قد خانته مؤيداً رأيه هذا بانه تناول فى هذا الجزء ما كان يكتب عنه طيلة خمسة عشر عاماً حين كان رئيساً لتحرير جريدة «السياسة» وبأن «الذين يزاولون الكتابة يعلمون أن التحرير المتصل فى موضوع بذاته ينقش فى اذهاننا ما نكتبه فلا ننساه ابداً» وهو ينفى ان يكون قد دافع عن السياسة التى ناصرها فى مختلف اطوار حياته .

ولقد ظل هيكل رئيساً لتحرير جريدة «السياسة» إلى أن عطلها الاحرار الدستوريون فى عام ١٩٣٧ وحينئذ ترك ميدان الصحافة إلى ميدان التأليف . ولما كانت اتجاهاته الفكرية ومبادئه تقيم حاجزاً بينه وبين الجماهير فإنه لم يوفق أحياناً فى الانتخابات النيابية ، ومن ثم فقد مارس نشاطه السياسى من خلال توليه مناصب وزارية أو من خلال ترؤسه لمجلس الشيوخ ولحزب الاحرار الدستوريين . وظل طيلة حياته السياسية ملتزماً بالمبادئ الديمقراطية وبالمصلحة الوطنية بحيث نلمس فى مذكراته سمواً فوق الاعتبارات الحزبية وتمسكاً بقواعد الاخلاق السياسية مع نزاهة واضحة تطالعنا بين وقت وآخر فى الأجزاء الثلاثة من مذكراته أما انتماؤه الحزبى فلم يكن له الا اثر جانبى فى مذكراته وفى سلوكه

العام خاصة انه خلال رئاسته لمجلس الشيوخ كان يؤمن بان هذا المجلس ملك للأمة كلها .

ويختلف الجزءان الأول والثاني من المذكرات عن الجزء الثالث الذي توفي هو قبل أن يستكمله . فقد سار الجزءان الأول والثانى وفقاً للترتيب الزمنى للأحداث فى حين انه سعى إلى أن يتناول فى الجزء الثالث موضوعات بعينها دون التزام بالترتيب الزمني . وقد خطط للكتابة فى الموضوعات التالية : قضية فلسطين – النزاع المصرى الإنجليزى – السودان – قيام الجامعة العربية – تطور الحياة السياسية – الازمات البرلمانية الكبرى والحياة الحزبية ، ولكنه لم يكتب فى الجزء الثالث سوى الفصول الخاصة بفلسطين والنزاع المصرى الانجليزى فى مجلس الأمن وأزمة مجلس الشيوخ فى يونية ١٩٥٠ وما أطلق عليه اسم الوثائق السياسية المزورة . وقد قام على إعداد هذا الجزء للنشر ابنه أحمد محمد حسين هيكل المحامى . وظل هذا الجزء محجوباً عن الانظار فترة طويلة قبل أن يتم نشره فى عام ١٩٧٧ .

حسن البنا

وجماعة الإخوان المسلمين
١٩٠٦ - ١٩٤٩



● الشيخ حسن البنا

لا تظهر الشخصيات البارزة من فراغ بل هى فى الواقع نتاج عصرها : تمتص مؤثراته وتتجاوب معها سلباً وإيجاباً ، وتتجخ أو تفشل بحسب الظروف المحيطة وبحسب تعبيرها عن متطلبات العصر . وحسن البنا ابن عصره ، فقد تجاوب مع إشفاق مسلمى مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية على دينهم وتراثهم إستقلالهم في مواجهة زحف المؤثرات الغربية التى أخذت تدق الأسافين فى البناء الفكرى والاقتصادى والاجتماعى فى مصر وتوجه الهجوم إلى الإسلام والمسلمين وبالإضافة إلى ذلك فقد تحمس كثير من المصريين وبخاصة من أصاب منهم تعليماً غربياً ، وأعجب بالحضارة الغربية ، إعجاباً مبعثه أن الغرب حقق نظاماً ناجحاً يقوم على الدستور ويحدد سلطة الحاكم ويقيم العدالة ويقر حرية كل من الفرد والمجموع ، كما عزيت حيوية أوربا إلى نظامها التعليمى وتنظيمها الاجتماعى ودعمها لروح البحث الحر وما أسهمت به المنظمات والجمعيات الخاصة فى تقدم أوربا اقتصادياً وإنسانياً ..

ولقد آذنت حركة الإقتباس عن الغرب بزعزعة القالب التقليدى للمجتمع المصرى واستيراد مجموعة من النظم والقوانين والمقاييس

الغربية التي ظلت لفترة طويلة غريبة على الكتل الجماهيرية ولا تتمشى مع حاجات ومشاعر وآمال المواطنين ، ومما ساعد على ظهور الأزمة المترتبة على المؤثرات الغربية أن أوربا في ثقتها غير المحدودة بنفسها وما ترتب علي ذلك من نزعات عدوانية واستحواذية كانت تبدو وكأنها تضع العالم بأسره في قبضتها في الوقتالذى اشتدت فيه الحملات على الدين الإسلامى . وكانت مشكلة الحضارة الغربية وما صاحبها من غزو واستعلاء من أعقد المشكلات التى واجهها المفكرون : فمنهم من اتجهوا إلى طرح التقاليد القائمة على زعم أنها مصدر النكوص والجمود والضعف وأبدوا حماسة للاقتباس عن الغرب ونشر علومه ونظم حكمه وأساليبه التعليمية وبثها في الشعب حتى يستيقظ ويتحرر من السيطرة الغربية . ومنهم من رفضوا الغرب وأبوا مسالمته ودافعوا عن تراثهم باعتباره منبع المقومات الأصيلة . ومنهم من حاولوا التوفيق بين التراث العربى - الإسلامي وبين منجزات العرب .

مقاومة الاضمحلال

وقد أدى كل ذلك إلى ظهور حركات التجديد الإسلامي في مصر وسائر الأقطار الإسلامية وهي الحركات التى اتخذت إما شكل إحياء سلفى كما هو الحال بالنسبة إلى « الوهابية » والسنوسية والمهدية أو شكل تجديد عصرى : ذلك أن المجتمع العربى -

الإسلامى كانت تهدده من الخارج قوى نشطة فى الوقت الذى كان يتهدده من الداخل نوع من الاضمحلال والغيبوبة ونقص فى الحيوية والتماسك ، وهكذا نجد جمال الدين الأفغانى يبذل كل ما فى وسعه لمقاومة هذا الاضمحلال الداخلى حتى ولو سار على خطى ثورية ، فى حين تصدى « المهدى » في السودان لمظالم « التركية الأولى » وكانت الحركة السنوسية فى طرابلس وبرقة تمثل فى بعض نواحيها إحتجاجاً ثورياً على عجز الأتراك وفسادهم واستغلالهم . وقد رفضت هذه الحركات السلفية فى مجملها الغرب فى الوقت الذى جرت فيه محاولات للتوفيق بين الميراث الحضارى الإسلامى وبين الحضارة الغربية المتفوقة وانبهر فيه الكثيرون بالحضارة الغربية . ومما ساعد على انتشار المؤثرات الغربية فى مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية ضعف سيطرة الدين واهتزاز مكانة رجال الدين ووقوفهم موقفاً سلبياً من المشكلات التى واجهت منطقة تتعرض لتحديات العلم التطبيقى الغربى وازدياد أهمية الفكر المستند إلى العقل والطبيعة .

ورغم اضمحلال الأسس القديمة التى قام عليها المجتمع المصرى فإنه كان لا يزال يستند إلى هيكل من الولاءات والمسئوليات التى ربطت مختلف الجماعات والطبقات الاجتماعية بعضها ببعض، ولو أن القالب القديم قد اهتز من أساسه فى الوقت الذى تم فيه

استيراد مجموعة من النظم والمقاييس الغربية التى ظهرت لفترة طويلة غريبة على الكتل الجماهيرية ولا تتمشى مع حاجيات ومشاعر وآمال السكان المسلمين .. والنتائج الإقتصادية المترتبة على المؤثرات الغربية معروفة بما فيه الكفاية . الانفجار السكانى الذى لم تصحبه زيادة فى المؤن الغذائية واتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء وخلق أطماع وشهوات جديدة تفوق ظهور وسائل الوفاء بها .

تحدى المشاعر

– وقد أدى عدم التوازن المترتب على تحلل النظام الاقتصادى التقليدى إلى تغييرات هامة أخرى ربما أهمها إضعاف الروابط الاجتماعية القديمة والأساليب والولاءات التقليدية . كما أن إزدياد حجم التصنيع وانتشار الهجرة إلى المدن قد أثر فى عملية الاقتباس عن الغرب بحيث كادت تكتسح البنيان الثقافى الفوقى وتدمر الأسس التقليدية التى قام عليها المجتمع المصرى وكل ذلك أدى إلى اضمحلال النظام الثقافى القديم وتفكك القوالب الاجتماعية والثقافية القديمة وبالتالى فقد واجه المجتمع المصرى نوعاً من عدم الاتزان أدى إلى حدوث أزمة حضارية لم تحسم حتى الآن . وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى قامت فى مصر حكومات ليبرالية يوجهها العلمانيون المتأثرون بالحضارة الغربية مما كان

يعنى الانهيار النهائى لمجتمع العصور الوسطى ، وزوال التأكيد على المميزات الدينية التى كانت شديدة الأهمية حتى ذلك الوقت . وتراجعت الشريعة الإسلامية التى حلت محلها دساتير ونظم برلمانية وقوانين غربية ، فى حين ألغت الحركة الكمالية فى تركيا الخلافة وفصلت الإسلام عن الدولة ، وهو ما هلل له الليبراليون ، وفى عام ١٩٢٥ والعالم العربى - الإسلامى مشغول بنتائج إلغاء الخلافة العثمانية نشر على عبد الرازق - القاضى الشرعى المصرى الذى كان قد أصاب بعض الثقافة الغربية - كتابه عن « الإسلام وأصول الحكم » الذى صدم عواطف الناس بجرأة وعنف ، وتحدى مشاعرهم وشكك - أحياناً بسخرية - فيما تطمئن إليه نفوسهم . وربط التقليديون ، وفى طليعتهم الأزهـريون ، بين كـتاب على عبد الرازق وبين المؤثرات الغربية التى أخذت تتغلغل فى المجتمع . وحينئذاصطدمت المؤثرات الحديثة ، التى كانت ثورية فى طابعها بالارتباط الغريزى بالتقاليد الدينية ، ومن ثم الهجوم العنيف عليه وعلى طه حسين الذى اتبع المنهج الديكارتى فى تناول قصص القرآن فى كتابه « الشعر الجاهلى » وفى نفس الوقت الذى تعرض فيه الإسلام للهجوم من جانب المبشرين والاستعماريين .

حسن البنا والإخوان المسلمون

وجاء رد الفعل ... فى أواخر العشرينيات من القرن العشرين

على شكل جمعيات دينية كانت تنشط فى أوساط الطبقة الوسطى فى المدن وتزداد أهميتها بمرور الأيام . وسرعان ما تحولت هذه الجمعيات إلى مراكز يتعايش فيها الدين والوطنية ، فى الوقت الذى بدأت تظهر فيه جمعيات أخرى ذات طابع دينى وسياسى أهمها جماعة « مصر الفتاة » وجمعية الإخوان المسلمين التى تأسست فى عام ١٩٢٧ على يد حسن البنا . وقد تصدت جمعية الإخوان المسلمين للدفاع عن الإسلام والحضارة الإسلامية ونددت بالسياسة التى كانت تتبعها الدول العظمى فى البلدان الإسلامية ، كما تصدت لآثار الاقتباس المتسرع من الغرب على العادات الشرقية . ولكن لم يثر سخطها شىء مثلما كانت تثيرها الأحكام التى أطلقها المستشرقون على الإسلام وتصريحات المبشرين . وفى نفس الوقت أصابت الحركة الفاشية نجاحاً فى إيطاليا بعد أن استولى موسولينى وأتباعه على الحكم ونددوا بالديمقراطية والنظم البرلمانية الغربية وركزوا على مزايا الدكتاتورية التى أعجب بها الكثيرون فى مصر والشرق وتوقعوا تحقيق كثير من الإنجازات تحت قيادة الزعيم الأوحد والحزب الواحد . وكان لذلك أثره على تنظيم جماعتى الإخوان المسلمين ومصر الفتاة الناشئتين .

وقد بدأ حسن البنا نشاطه فى الإسماعيلية التى كانت تقطنها جاليات أوربية متنوعة تحيا حياتها الخاصة المخالفة للأنماط

الإسلامية . وسرعان ما اجتذب إلى صفه جموع أبسط طبقات الشعب والحرفيين والوطنيين والطلاب والبورجوازية الوطنية الصغيرة ثم أغراه النجاح الذى أصابه بنقل قاعدة نشاطه إلى القاهرة التى أسس فيها شعباً للجماعة واتخذ منها المركز الرئيسى لدعايته ومنها كان يتنقل للقيام بجولات دعائية فى الأرياف والمدن المجاورة . ومما جذب الكثيرين إلى دعوته انه كان يبشر بمنطق جديد يستلهم التفسير الأصولى للإسلام ويرفض المؤثرات الغربية جملة وتفصيلاً .. فقد سعى إلى بناء المجتمع على شكل جماعة إسلامية عصرية تلعب دورها فى تحقيق سلام العالم وبناء الحضارة الإنسانية على أساس جديد يقوم على التأكيد على المبادىء العالمية للإسلام الداعية إلى الإخاء والقيم الروحية . وهكذا قدم البنا جماعته باعتبارهم بديلاً لحكم الساسة العلمانيين وبالتالى للنمط الأوربى المستورد فيما يتعلق بالحكومة والمجتمع . وقد ساعدت نشاطاته ومقوماته الشخصية وإيمانه بمبادئه ، إلى جانب أوضاع مصر العامة ، على سرعة انتشار دعوته التى مست وتراً حساساً لدى قسط كبير من الكتل الجماهيرية لتى قل إيمانها بالزعامات التقليدية المتصارعة . فقد كان متواضعاً حاد الذكاء قوى الذاكرة شديد الفصاحة وخطيباً مفوها يهز مشاعر سامعيه ببلاغته واستشهاده بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . مما أدى إلى

سيطرته على جماعته سيطرة مطلقة بالصورة التى غطت على الزعامات الأخرى المحتملة ، خاصة انه كان من أنصار الزعامة الفردية . وقد التقت جماعته منذ نشأتها مع الأنظمة الفاشية فى إقامة تشكيلات شبه عسكرية (الجوالة) ودعوتها لتوحيد القوى وإلغاء الأحزاب السياسية ومركزية السلطة الفردية وربطها كل ذلك بنوع تفسيرها لنظام الحكم فى الإسلام . ولهذا كانت جماعة الإخوان المسلمين تشبه غيرها من الحركات السياسية التى شهدتها الساحة المصرية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من حيث قصور التنظيم وارتباطه على الأغلب بشخص واحد يحتكر الزعامة والتوجيه : وبالتالى فقد تجمدت زعامة الإخوان المسلمين التى أخذت بمبدأ الزعيم والتابع المستند إلى القيادة والطاعة .

ولما كانت حركة الإخوان المسلمين بالضرورة تشكل رد فعل عنيفاً ضد الفشل الأيديولوجى الذى منى به قادة المثقفين أيا كانت اتجاهاتهم وضد الفشل السياسى والاجتماعى للنظام الليبرالى فى مصر فقد قامت باعتبارها حركة سياسية - دينية استلهمت التفسير الأصولى الإسلامى بصدد المسائل الاجتماعية والسياسية وبالتالى فإنها لم تأخذ بالأساليب الحديثة للتنظيم السياسى وإن كانت قد قدمت نفسها باعتبارها بديلاً لحكم الساسة العلمانيين وبالتالى للنمط الأوربى المستورد دون أن تقدم حلاً للمشكلات

الأيديولوجية والاجتماعية التى كانت تواجه المجتمع المصرى . ومن العوامل التى أدت إلى نجاح الحركة بمرور الزمن جمود علماء الأزهر وتوقف نشاطهم عند حدود معينة من التفسيرات والشروح وبعدهم عن اهتمامات الجماهير الحقيقية وعدم التفات الأحزاب إلى المشكلات الإجتماعية فى الوقت الذى كانت فيه الجماهير شديدة الاهتمام بضرورة الإصلاح الاجتماعى . ويضاف إلى هذا ما كان فى أعقاب الحرب العالمية الثانية من ظهور مجموعة من « أثرياء الحرب » الذين لم يلتزموا بالأخلاق التقليدية مما أدى إلى ظهور ألوان من الرذائل والآفات الأخلاقية وإفساح المجال للدعوة الدينية فى الوقت الذى أخذت فيه الجماهير تبحث عن قيادات تعبر عن مطالبها فكان من السهل عليها أن تقع تحت تأثير حسن البنا الذى كان محور مناقشاته يدور حول فساد الحياة السياسية وضرورة العودة إلى الإسلام طلباً للإصلاح . وكان البنا لا يعترف بالقومية التى رأي أنها جاءت من الغرب ، ولهذا أكد على ضورة قيام الجامعة الإسلامية والخلافة ذاهباً إلي أن دولة ومجتمعاً يقومان على القرآن والسنة يستطيعان أن يضعا حدا لكل أمراض المجتمع فى الوقت الذى لم تكن لديه هو وأتباعه فيه أية فكرة واضحة عن المشكلات المعقدة التى تواجه مجتمعاً حديثاً وبالتالى كانوا على استعداد لاعتبار كل من يعترض على برنامجهم عدواً للإسلام .

الإخوان وقضية فلسطين

وبمرور الزمن ولدت الدعاية النشطة للإسلام لدى أبسط طبقات الشعب والطلاب وبعض قطاعات البورجوازية المصرية في المدن الكبرى تيــاراً قوياً معـــادياً للأجانب . وفيمــــا بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٨ ظلت دعة الإخوان المسلمين التى صيغت فى جمل بليغة وبسيطة تنمو وتفسر وتنتشر فى كتيبات صغيرة توزع بالمجان أو تباع بأثمان زهيدة وفى صحيفة يومية هى « الإخوان المسلمون » ومجلة شهرية هى «الشهاب» . ومن العوامل التى استغلها الإخوان خلال هذه الفترة احتدام القضية الفلسطينية التى واجهت أطماع الصهيونية العالمية دون أن تستطيع الحكومات العربية والإسلامية أن تصيب نجاحاً ولو قليلاً فى سبيل إنقاذ فلسطين من الأخطار المحدقة باستثناءالإدلاء بالخطب الملتهبة وتهديد المتآمرين على فلسطين بالويل والثبور وعظائم الأمور . وعلى العكس من ذلك كان موقف الإخوان المسلمين الذين تطوع بعضهم للدفاع عن فلسطين بقوة السلاح – بل إن « المرشد العام » وهو اللقب الذى خلع على حسن البنا قام بجولات فى فلسطين أمكنه خلالها أن يفتتح عدداً

من الشعب فى الوقت الذى قام فيه الأخوان المسلمون بجمع التبرعات وتكديس السلاح لخدمة القضية بالإضافة إلى الظروف الموضوعية الأخرى التي سبقت الإشارة إليها هو ما جلب لحركة الإخوان عددا كبيرا من الأتباع الذين يقال إنهم وصلوا إلى ما يزيد على المليون في أعقاب الحرب العالمية الثانية لدرجة أنهم كانوا يسيطرون على الساحة الجامعية والحركة الطلابية والشبابية ويتصدرون الحياة الدينية والسياسية .

وقد حاولت الأحزاب المصرية دون جدوى أن تشد أزرها باجتذاب الإخوان المسلمين إلى صفها إذ استخدمها حسن البنا أكثر مما استخدمته وأفاد بمهارة من حزازاتها ومنافساتها فى الوقت الذي استطاع فيه أن يهب جماعته تنظيما قوياً فسرعان ما انتشرت في شتى ربوع مصر الشعائر الدينية والتدريب العسكرى فى الوقت الذى كانت فيه الجماعة على قمة الحركة الوطنية المعادية للأجانب التي أدت حرب فلسطين (١٩٤٨ - ٤٩) إلى تأجيجها ، وخلال الهجوم على الصهيونية كان المساس بالحضارة والأساليب الغربية وتدميرها هو الهدف ، وبالتالى كثرت

الهجمات على البارات والسينما وبعض المؤسسات التى يمتلكها اليهود والأجانب فى الوقت الذى جرى فيه الاعتداء على بعض الشخصيات العامة التي تصدت لنشاطات الإخوان الذين كان لهم جهاز سرى يشرف على الاغتيالات وإلقاء القنابل ويكدس الأسلحة فى القاهرة وغيرها من المناطق المصرية .. وفى ٨ ديسمبر ١٩٤٨ أصدر رئيس الوزارة المصرية محمود فهمى النقراشى قرار حل الجماعة ليدفع حياته ثمنا لذلك بعد أيام وبعد ذلك اغتيل البنا فى ١٢ فبراير ١٩٤٩ ، وتعرض الإخوان لمطاردة البوليس والاعتقال وإن لم يؤد ذلك إلى زوال الخطر الذى شكلوه على نظام مصر السياسى .

ولم يؤد مقتل البنا إلى توقف نشاط جماعة الإخوان بل ساعد على توسيع دعايتها سرا فى الوقت الذى انتهت فيه حرب فلسطين إلى كارثة ، فوزعت فى شوارع القاهرة ومساجدها منشورات هاجمت الحكومة والسراى ، ولم تعد الحكومة تستطيع حفظ النظام إلا بصعوبة بالغة فى حين اكتشفت مخازن للأسلحة والذخيرة وأحبطت مؤامرات كانت تعد ضد سلامة النظام القائم إلا أن غياب

قائد الحركة استتبع زعزعة مكانتها خاصة وقد دبت الخلافات فى صفوفها مما مهد لتوجيه الضربة القاضية إليها على يد نظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مما أدى إلى اختفائها عن الساحة السياسية المصرية فترة طويلة ولو أن الاتجاه الذى مثلته لا يزال قائما وفعالا ليس فقط في مصر بل فى غيرها من الأقطار العربية والإسلامية . فلا يزال المسلمون يشعرون بالإشفاق على مصير دينهم فى مواجهة التحديات التى تواجهه ، كما أن الأقطار الإسلامية لم تصب نجاحا كبيرا فى حل المشكلات التى تعترضها فى الوقت الذى لا يزال فيه المسلمون يقارنون أوضاعهم الراهنة بفترة تفوقهم السابقة على مسرح الحضارة العالمية ويسعون جاهدين إلى إحياء أمجادهم فى مواجهة قوى متفوقة من الشرق والغرب لا تزال تحكم الملايين من المسلمين الذين – منذ بدء حركة الاستعمار العالمى – وجدوا أنفسهم يخضعون لقوى غير إسلامية وتطبق عليهم قوانين وأنماط لا تتمشى مع المفاهيم الإسلامية .

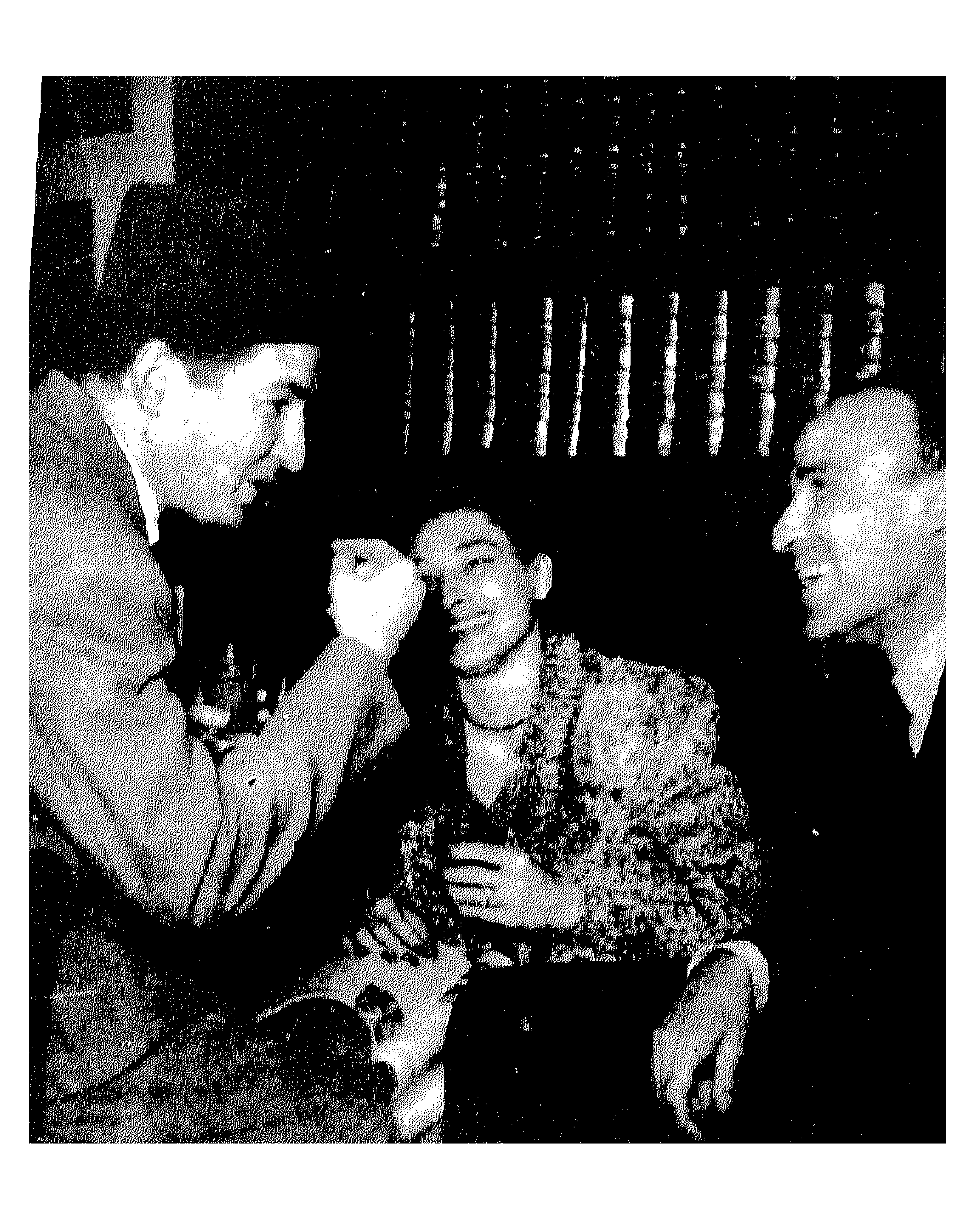
وهكذا نجد أن حسن البنا ليس سوى أحد أعلام حركة ، الهجوم الإسلامى المضاد فى مواجهة التحديات الداخلية والخارجية

التى طالما أحاطت بالعالم الإسلامى بحيث يمكن إضافة اسمه إلى سجل الزعماء المسلمين الذين سعوا إلى حل مشاكل المسلمين سواء عن طريق الإحياء السلفي أو التجديد العصرى : يستوى فى ذلك محمد بن عبد الوهاب والسنوسى الكبير ومحمد أحمد المهدى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وتلامذته - إلى غير ذلك من الدعاة الذين سعوا إلى إحياء السنة والقضاء على البدعة بهدف حماية المجتمع الإسلامى والقضاء على ما اعتبروه من المفاسد - فالإصلاح لدى المجددين فى الإسلام هو التنقيب عن الجوهر القديم ونفض ما تراكم عليه عبر عصور الجهل من بدع ، ومقاومة ما اعتبروه خطرا على الإسلام من المؤثرات الخارجية وبخاصة إذا ما جاءت من « دار الحرب » التى طالما اعتبرت عدوة لدار الإسلام والمسلمين الذين لا يزالون يحلمون بانتشار الإسلام على وجه الأرض قاطبة .

إحسان عبد القدوس

١٩١٩ - ١٩٩٠

وقضية الأسلحة الفاسدة



● إحسان عبد القدوس يروى لشكرى زيدان تاريخ معرفته بالفنانة لولا صدقى

أثارت قضية الأسلحة الفاسدة اهتمام الرأى العام المصرى فى اعقاب حرب فلسطين . وكانت لها مضاعفات قوية ساعدت على انهيار النظام القائم فى مصر ، واقترنت الضجة التى صاحبت هذه القضية باسم الصحفى الراحل إحسان عبد القدوس الذى نشر مقالات حادة فى مجلة روزاليوسف كان لها صدى واسع النطاق فى الرأى العام المصرى الذى تكشفت له الهزيمة التى حلت بالقوات المسلحة المصرية وحار فى تفسير اسبابها بعد أن لم يقتنع بالتبريرات التى قدمت له عنها .

وقد مست مقالات إحسان عبد القدوس الملك وحاشيته بوجه خاص كما مست كثيرا من الشخصيات الأخرى التى قيل أنها حصلت على أرباح طائلة من توريد أسلحة فاسدة قيل إنها كانت السبب فى الهزيمة ولو أن هذه الهزيمة ، كما سنرى ، كانت نتيجة لأسباب أخرى سنعرض لها فى هذا السياق .

فبعد قرار تقسيم فلسيطن الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ استعد اليهود للحرب ضد العرب الذين ابدوا رفضهم لقرار التقسيم . وسعى ممثلو اليهود لشراء الأسلحة والعتاد الحربى فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية وتشيكوسلوفاكيا وأمكنهم تهريب كميات كبيرة منها إلى فلسطين قبل

انتهاء الانتداب البريطاني في الوقت الذي عبئوا فيه الرجال والنساء للخدمة العسكرية . كما بذلت الوكالة اليهودية جهودا ضخمة لتحصيل الأموال من يهود «الشتات» وأمكن جمع مبالغ طائلة وبخاصة من يهود الولايات المتحدة وفي أوائل مايو ١٩٤٨ كانت لدى وزير الدفاع الامريكي تقديرات عن قوة اليهود استخلص منها ان القوات اليهودية في فلسطين كانت تتفوق على كل القوات العربية مجتمعة من حيث الرجال والتجهيز والتدريب . وبعد اندلاع الحرب بقليل قدم قسم المخابرات العسكرية الامريكية الى رئيس الأركان مذكرة قدرت قوات الجامعة العربية التي دخلت فلسطين بعد انتهاء الانتداب البريطاني أو وقفت بالقرب من حدودها بحوالي ٢٠ ألف مقاتل مضافا اليهم حوالي ١٣٠٠٠ محارب فلسطيني . كما قدرت القوات اليهودية بأربعين ألفا يساندهم حوالي ٥٠٠٠٠ من الميلشيات . وخلال الهدنة عزز العرب قواتهم بنسبة الثلث فاوصلوا اعدادها إلى ٣٥٠٠٠ مقاتل في حين أوصل اليهود قواتهم إلى ٦٠,٠٠٠ مقاتل . وفي اواسط يونيه ١٩٤٨ قدرت هيئة الأركان الأمريكية المشتركة الاحتياطي البشري لدى الطرفين المتحاربين على الوجه التالي : الحد الأعلى لتعبئة اليهود : ١٨٥٠٠٠ والعرب حوالي ١٤٠٠٠٠ من الجنود الذين يمكنهم الاشتراك الفعلي في القتال .

وفى نوفمبر قدر الإنجليز أن القوة الجوية اليهودية بلغت حوالى ١٥٠ ـ ١٦٠ طائرة حربية يقودها متطوعون أجانب .

والحق أن الدول العربية لم تكن حتى ١٥ مايو ١٩٤٨ تصدق ان الإنجليز سينسحبون من فلسطين وبالتالى فإنها لم تعد العدة للحرب ولكن الزعماء العرب ضللتهم دعاياتهم الحماسية خاصة أن بعضهم استهتروا بقوة اليهود واعتقدوا أن هزيمتهم ممكنة ولن يعدو القتال ان يكون نزهة حربية . وقد اصاب عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية ، كبد الحقيقة حين صرح للسفير البريطانى فى القاهرة فى أواخر إبريل ١٩٤٨ بأن الاستعدادات العسكرية التى كانت تتظاهر بها الدول العربية كانت تستهدف انقاذ الزعماء العرب من جماهيرهم ، ولهذا فإنه حاول عبثاً أن يقنع الإنجليز بالبقاء فى فلسطين فترة أخرى ـ وكان رئيس الوزراء المصرى محمود فهمي النقراشي قد صرح فى مؤتمر «عاليه» الذى عقدته الجامعة العربية ان مصر اذا كانت توافق على الاشتراك فى الحشد العربى للقوات العربية على حدود فلسطين فإنها غير مستعدة للمضى أكثر من ذلك . ورغم ذلك فإن الملك فاروق بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة ، اصدر أمره بدخول هذه القوات الى فلسطين حتى يتمكن من إفشال مشروعات الملك عبدالله حاكم الاردن الخاصة بتوسيع مملكته تحقيقا لمشروع سوريا الكبرى ،

بالإضافة إلى رغبته فى تحويل أنظار الرأى العام المصرى عن المشاكل الداخلية وأن يقوى سلطته .

وعلى أية حال فقد دخلت جيوش الأردن ومصر والعراق وسوريا ولبنان إلى فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ وهى تجهل حالة اليهود ومقدار قواتهم ومدى تسلحهم ومناعة تحصيناتهم فى الوقت الذى كان فيه اليهود يعرفون الكثير عن هذه الجيوش . ورغم الدعايات الواسعة التى احيط بها تقدم القوات العربية فى القسم العربى من فلسطين إلا أن الواقع كان مغايرا . وكانت النتيجة هى ان القوات العربية لم تنجح فى تحقيق اهدافها . بل لقد استولى اليهود على أراض جديدة لم تخصص لهم فى قرار التقسيم ، واضطرت الدول العربية إلى قبول الهدنة التى قيل إنها تستهدف التمهيد لقيام سلام دائم فى فلسطين .

وقد حارت الجماهير العربية فى تفسير ماحدث . حقيقة إنها خدرت بالبيانات الكاذبة ، إلا انه كان من المستحيل التكتم على الحقائق بعد عودة المقاتلين إلى أوطانهم - وكانت النتيجة هى امتزاز هيبة الأنظمة الحاكمة التى مالبث بعضها أن سقط بعد قليل نتيجة لانقلابات عسكرية قام بها بعض الضباط الذين اشتركوا فى الحرب . وكانت قضية الأسلحة الفاسدة أول معول وجه إلى نظام الحكم القائم فى مصر - وأساس هذه القضية أن الولايات المتحدة

وفرنسا وبريطانيا قد اصدرت بعد نشوب الحرب فى فلسطين بيانا يحظر تصدير الأسلحة والذخائر الي الدول المتحاربة . وعلى حين أن الدولة اليهودية كان لديها ما يكفيها من الأسلحة ، بالاضافة إلى ما صنع منها محليا ، فإن عمليات التهريب الى داخل فلسطين لم تتوقف . بل لقد افلحت السلطات اليهودية فى عقد صفقة اسلحة مع تشيكوسلوفاكيا وافق عليها ستالين الذى كان يسعى إلى إيجاد حالة ارتباك في الشرق الأوسط تمهد للقضاء على النفوذ الغربى فى المنطقة . وقد تدفقت الأسلحة التشيكية على فلسطين بعد الهدنة الاولى وكان لها اثرها فى إنهاء الحرب لصالح اليهود .

وإزاء الحظر الذى فرض على توريد السلاح الى المنطقة ، وهو الحظر الذى تحايل اليهود على خرقه فإن وزارة الحرببية والبحرية المصرية سعت بعد أن كادت تنفد اسلحتها فى المراحل الأولى من الحرب الى الحصول على السلاح من السوق السوداء بأى ثمن وبغض النظر عن صلاحية هذه الأسلحة . وظهر وسطاء وعملاء استغلوا الموقف للحصول على الربح السهل . وكان الصحفى الراحل إحسان عبد القدوس هو الذى قام بحملة صحفية مكثفة على صفحات مجلة «روز اليوسف» كشفت أبعاد الصفقات المريبة التى أحاطت بتوريد السلاح الفاسد الذى قيل إن بعضه كان سببا فى الهزيمة ، ولو أن ذلك لا يفسر كل الاسباب التى ألمحنا إليها من قبل .

وكان هدف إحسان من الحملات الصحفية التى شنها هو مهاجمة النظام القائم وتحريض الرأى العام - وبخاصة فى صفوف القوات المسلحة - على الثورة .. وقد تنبه الى موضوع الأسلحة الفاسدة أثناء وجوده فى إيطاليا التى استمع فيها إلى اخبار عن صفقات الأسلحة التى عقدها مندوبو الجيش المصرى . وفى ٢٠ يوليه ١٩٤٩ كتب مقالا عنوانه «محاكمة مجرمى حرب فلسطين» طالب فيه بتشكيل محكمة لمحاكمتهم . ورغم أن مقاله لم يثر اهتماما جديا فى البداية فإنه واصل هجومه على النظام القائم مستغلا فيه الانباء التى وصلته عن صفقات الأسلحة التى كانت تعقد فى إيطاليا وفرنسا .

ورغم المخاطر التى تعرض لها إحسان ، ومنها محاولة قتله ، فانه استطاع أن يلفت الانظار إلى الفئة التى سعت إلى الاثراء باستيراد الأسلحة فاسدة وغير فاسدة وكان من نتيجة ذلك أن محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة ، ضمن تقريره السنوى عن الحساب الختامى بعض صفقات الأسلحة والذخيرة التى أيدها بالوثائق ، ولكن تقرير رئيس ديوان المحاسبة لم ينجح فى تحريك القضية بل لقد اصرت الحكومة حين تقدم للمطبعة الاميرية لطبع التقرير ، على ضرورة حذف العبارات التى تشير الى وجود تلاعب فى صفقات الأسلحة ولكنه اصر بدوره على نشر التقرير كاملا . ولما لم تستجب الحكومة لطلبه قدم استقالته من

منصبه . ولم يقف الامر عند هذا الحد . بل أثير الموضوع فى مجلس الشيوخ على يد مصطفى مرعى العضو فى المجلس الذى استخرج من تقرير رئيس ديوان المحاسبة السابق مستندات تثبت التلاعب فى شراء صفقات السلاح التى ثبت انها كانت تتم بعلم رجال وزارة الحربية بما فيها من تلاعب . وطرد مصطفى مرعى من عضوية مجلس الشيوخ ومعه كل من ايده من الأعضاء بل لقد وصل الأمر الى عزل رئيس مجلس الشيوخ الذى سمح بمناقشة الاستجواب !

وإزاء كل ذلك لم يجد إحسان بدا من الاتجاه الى ضباط الجيش الساخطين على فساد النظام القائم فعقد معهم اجتماعا فى بيت احدهم ثم اجرى اتصالات مع شباب الضباط الذين اشتركوا فى حرب فلسطين واستغل المعلومات التى وصلت اليه فى كتابة مزيد من المقالات فى مجلة « روز اليوسف » ومنها مقال استفز فيه وزير الداخلية الوفدى فؤاد سراج الدين على امل أن يقدم الى المحاكمة . وبلغت الحكومة الوفدية النائب العام ضده للتحقيق معه فى مجموعة المقالات التى بدأ نشرها فى ٦ يونيه ١٩٥٠ . ولكنه امكنه بمساعدة اصدقائه أن يحصل على صورة للعقد المبرم بين احد تجار الأسلحة وبين زوجة ضابط كبير . وهو العقد الذى كان ينص على قيام الشركة بينهما لتوريد الأسلحة

الخاصة بحرب فلسطين وادى ما نشره إحسان الى تحقيق النائب العام معه ـ وتطرق التحقيق الى «النبيل» عباس حليم ـ الذى اتهمه إحسان رسميا امام النائب العام بعد أن حصل من شباب الضباط على ادلة اتهامه . وبعد ان انتهى من الادلاء بشهادته نشر نداء يطالب فيه المواطنين بان يتقدم كل من لديه معلومات تتصل بالقضية للادلاء بها للنيابة مع وعد بحمايته .. ومن هذه المعلومات التي وردت اليه ما ثبت من ان احد التجار كان قد انتشل الذخيرة من البحر بالقرب من السواحل الايطالية وكانت موجودة فى سفن الحلفاء التى اغرقتها الغواصات الالمانية – ورغم فساد هذه الأسلحة التى بقيت سنوات فى مياه البحر المتوسط فإنها بيعت للجيش المصرى .

وكما سبقت الاشارة كانت حملة إحسان موجهة ضد النظام الملكى القائم مع الاستعانة ببعض صفقات الأسلحة التى تمت خلال حرب فلسطين . وقد ثبت تاريخيا ان هذه الأسلحة الفاسدة لم تكن بالاهمية التى علقها إحسان عليها بل ان الهزيمة فى فلسطين فى عامى ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ كانت مرتبطة بعجز النظام القائم فى مصر وضحالة معلوماته عن قوة اليهود واستعداداتهم وتدخل السراى فى سير العمليات الحربية وعدم كفاءة القائد العام ـ حيدر باشا الذى كان لجهله قد زين للملك فاروق أن النصر وشيك ـ

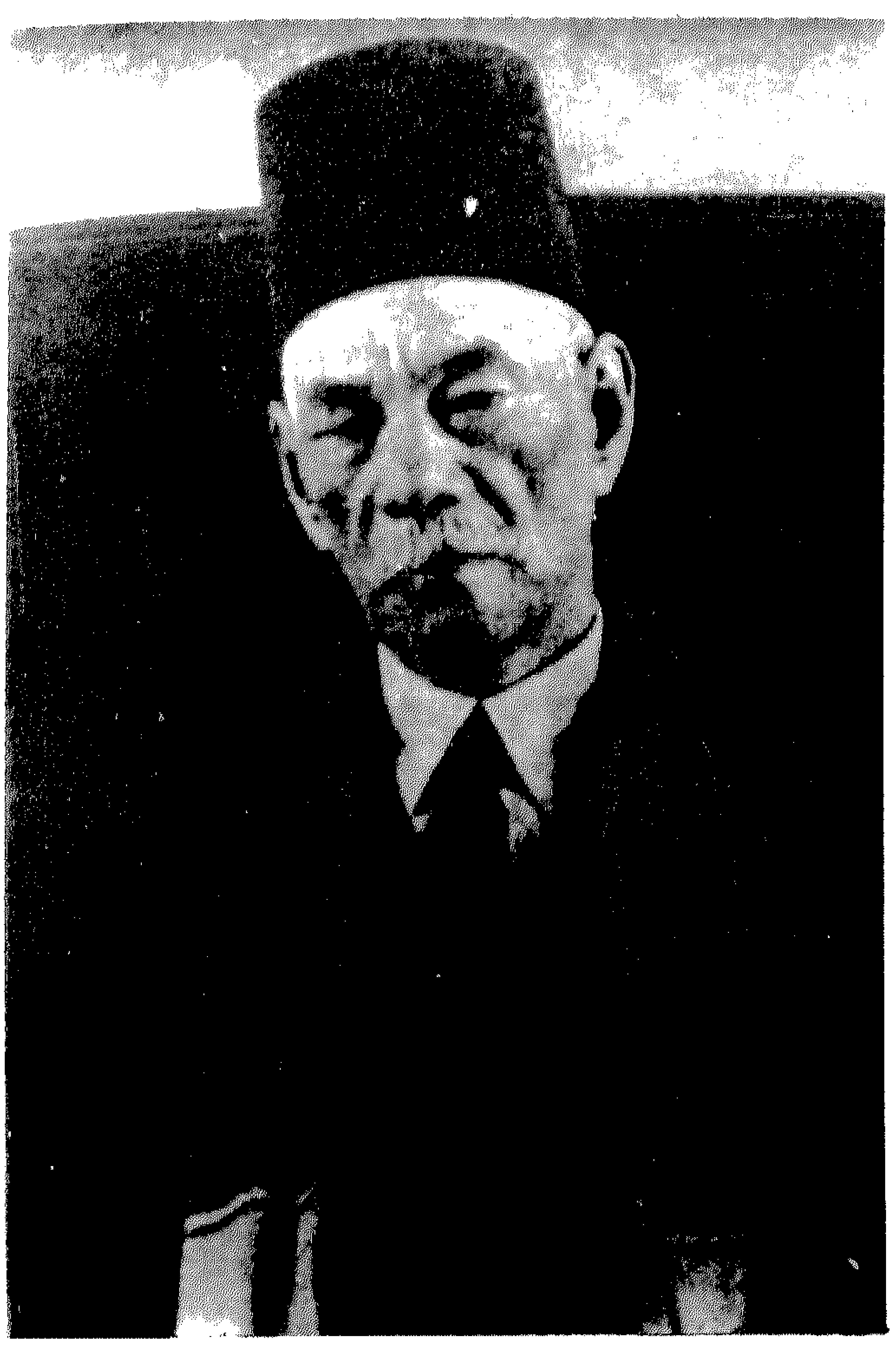
هذا فى الوقت الذى منى فيه عبد الرحمن عزام الملك بتبوؤ زعامة العالم العربى كله وزين له أن انقاذ فلسطين سيتحقق بسهولة خلال ثلاثة اسابيع ، وسيكون الخطوة الأولى التى تقوم بها الجامعة العربية ، تحت زعامة مصر ، لضمان حرية ليبيا أولا ثم بقية شمال افريقيا !

وعلى أية حال فقد اصدر النائب العام فى ٢٨ مارس ١٩٥١ قرارا بحفظ التحقيقات بالنسبة لأفراد الحاشية الملكية جاء فيه أن كل ما اسند اليهم تبين عدم صحته ، كما اعتذر رئيس الوزراء الوفدى - مصطفى النحاس - للملك عما حدث من تحقيقات فى قضية الأسلحة الفاسدة مع بعض افراد الحاشية الملكية . وبعد قيام ثورة ١٩٥٢ اعادت النيابة التحقيق فى القضية وانتهت الى حفظها من جديد ، بعد ان لم تقدم مدنيا أو عسكريا الى المحاكمة ، ورغم كل ذلك فإن هذه القضية قد نجحت فى المساس بهيبة النظام القائم الذى فشل فى مواجهة مشاكل البلاد وإيجاد حلول لها فشله فى الحرب الفلسطينية التى اشترك فيها الجيش المصرى دون أى استعداد .

وفى ختام هذا المقال لابد أن نشيد بجرأة إحسان عبد القدوس ووطنيته فى تناول هذه القضية التى كادت تهدر حياته . ورحمة الله على هذا الكاتب الذى طالما هز ضمائر جيلنا الذى كان متفتحا لقضايا بلده ومستعدا لخوض الصعاب في سبيل رفعته وتقدمه .

سعد زغلول

١٨٥٩ - ١٩٢٧



● سعد زغلول أبرز الساسة المصريين فى النصف الأول من القرن العشرين

هــو أبرز الساسة المصريين خلال النصف الأول من القرن العشرين وزعيم ثورة ١٩١٩ التى انفجرت عقب القبض عليه - وكانت هذه الحادثة وماترتب عليها مفجرا للسخط الذى عم مصر نتيجة للاحتلال البريطانى وتشديد السلطات البريطانية فى القبض والنفى والتشريد بعد نشوب الحرب العالمية الأولى التى أدت إلى ارتفاع الأسعار وإيقاف التصدير والاستيراد وتحديد حريات المواطنين والاستيلاء على محاصيل الفلاحين وإرغام أبنائهم على الخدمة الجبرية لمساعدة المجهود الحربى البريطانى، أما الأعيان والساسة فقد ساءهم تعطيل الحياة النيابية والتضييق على الصحف والتجمعات .

وقد انفجرت الثورة فجأة فى الوقت الذى لم يتوقعها المصريون وغيرهم واشتركت فيها جميع فئات الشعب المصرى الذى قدم كثيرا من الشهداء، وأهم من هذا أن الزخم الثورى الذى انبعث من هذه الثورة قد امتد إلى كثير من المجالات : الأدب والفن واليقظة الشعبية العامة التى لم يسبق لها مثيل .

وتزعم سعد هذه الثورة التى لم يسمع بأنبائها إلا فى مالطة التى نفى فيها دون أن تكون له يد فى انفجارها، بل إنه لم يعد أن يكون رمزا لها - ومنذ نشوب الثورة علت قامة سعد واقترن اسمه

بتاريخها وأحيط بهالة ضخمة خاصة وأن أنصاره قد شكلوا أهم الأحزاب التى عرفتها مصر قبل عام ١٩٥٢ وجعلوا منه بطلا أسطوريا اختلطت فيه الحقيقة بالتمنى والخيال وسخروا اسمه لكسب الجماهير وأقاموا له التماثيل وبنوا له ضريحا ضخما وجعلوا من بعض تواريخ حياته مناسبات قومية، فاليوم الذى قابل فيه هو وزميلاه المندوب السامى البريطانى للتعبير عن أمانى مصر فى الحرية والاستقلال جعل يوم عيد الجهاد ١٣ نوفمبر ويوم وفاته فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ جعل يوم حداد عام يزار فيه قبره وتلقى فيه خطب هو محورها ، وبيته أصبح «بيت الأمة» وزوجته خلع عليها لقب «أم المصـريين»، وبعض أنصاره عرفوا باسـم «ابن سعد البـار» و«خليفة سعد» وغير ذلك . واسرف الكتاب فى وصف مناقبه والدفاع عن مواقفه بالحق وبالباطل ومنهم عباس العقاد الذى ربط بينه وبين الشخصية المصرية جريا وراء منهجه الذى اهتم بالعبقريات وجعل منها محورا للأحداث. ولم توجد دراسة نقدية عنه وعن الدور الذى لعبه فى الحياة السياسية المصرية إلى أن تناول الصديق عبد الخـالق لاشين دراسته فى جزءين حول دوره فى السياسة المصـرية (القاهرة ١٩٧١ - ١٩٧٥) وهى دراسة التزمت المنهج العلمى وصدمت الكثيرين من حملة المباخر وعباد البطولة .

ولد سعد فى عام ١٨٥٩ فى أسرة من أعيان الريف فى قرية

إبيانة التابعة لمديرية الغربية وتلقى تعليمه الأولى فى كُتَّاب القرية ثم التحق بالأزهر فى عام ١٨٧٣ والتف حول جمال الدين الأفغانى هو وكثير من طلبة الأزهر منهم الشيخ محمد عبده ، ولم يستكمل دراسته فى الأزهر بعد أن أصبح محمد عبده رئيسا لتحرير «الوقائع المصرية » وطلب منه أن يساعده فى تحريرها واستمر فى عمله هذا حتى مايو ١٨٨٢ وحمل لقب أفندى وتزيا بالزى الأفرنجي وبعد أن ترك عمله فى الوقائع نقل إلى وظيفة معاون بنظارة الداخلية ، ولكنه فصل من عمله لاشتراكه فى الثورة العرابية فاشتغل بالمحاماة التى لم تكن حينئذ تستلزم الحصول على مؤهل مناسب، ثم قبض عليه فى عام ١٨٨٣ بتهمة الاشتراك فى المؤامرة الوطنية المعروفة بجمعية الانتقام وبقى فى السجن لمدة تزيد على ثلاثة أشهر عاد بعدها إلى الاشتغال بالمحاماة التى أحرز فيها شهرة واسعة بسبب استقامته وفصاحته . وما لبث سعد أن دخل دائرة أصدقاء الإنجليز ومنهم الأميرة نازلى فاضل التى كان لها صالون ارتاده قبل سعد صديقه وأستاذه الشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه فى عام ١٨٨٨ وعن طريق هذا الصالون صدر العفو عن سعد الذى التقى فيه بحاكم مصر الفعلى سير إفلن بيرنج (اللوردكرومر فيما بعد) مما جعله يسعى إلى تعلم اللغة الانجليزية .
كما يبدو أن زواج سعد من ابنة مصطفى فهمى باشا صديق

الانجليز ورئيس وزراء مصر لأطول فترة حتى ذلك الوقت قد جرى تدبيره فيه، وبذلك حصل سعد فى مقتبل حياته على دعم الإنجليز وأصدقائهم من المصريين، مما أثر فى تفكيره وسلوكه، ولهذا نجده يشرع فى تعلم اللغة الفرنسية المستعملة فى الصالون. وكان سعد قد تقلد وظيفة نائب قاض فى عام ١٨٩٢ ثم حصل على الليسانس فى عام ١٨٩٧ وانضم إلى الجناح السياسى لفئة المنار ومنهم الأزهريون واصحاب المناصب والأدباء والسياسيون والمصلحون الاجتماعيون والمدافعون عن الدين كما اشترك فى الحركة العامة التى سعت الى إنشاء الجامعة المصرية. وكان أميل الى حزب الأمة، حزب الأعيان واصدقاء الإنجليز، الذى كان مناوئا للحزب الوطنى وزعيمه مصطفى كامل الذى كان سعد يقول عنه إنه «مجنون ونصاب خداع ومنافق كذاب وليس بشىء» وكان من أوائل من دافعوا عن قاسم أمين وكتابه «تحرير المرأة» وهنا نلمس أثر محمد عبده وصالون نازلى فاضل والاتصال بدوائر الانجليز فى تطوير تفكير سعد وتوجهاته - فكرومر اطلق على اتجاه محمد عبده وتلامذته اسم فريق «عقلاء مصر» الذى سعى الى أن يجعل منه عاملا موازنا لتطرف الحزب الوطنى ومصطفى كامل. وفى عام ١٩٠٦ جرى تعيين سعد ناظرا للمعارف، وكان هذا التعيين بمثابة تجربة القصد منها تكوين حكومة من الوطنيين المعتدلين وهو ماصرح به ولفردبلنت صديق العرابيين . وظل سعد يشغل منصبه

هذا حتى عام ١٩٠٦ حين عين ناظرا للحقانية - وفى تلك الأثناء كان من المصريين القلائل الذين اشتركوا فى حفل أقيم بدار الأوبرا لوداع اللورد كرومر. وبرحيل كرومر فقد مصطفى فهمى وسعد زغلول سندا كبيرا، ولو أنه بصفته الرسمية ساند مشروع مد امتياز قناة السويس لأربعين سنة أخرى وأيد الاجراءات الاستثنائية التى فرضتها سلطات الاحتلال للضرب على أيدى الوطنيين وتقييد الحريات والصحافة. وحين أصبح كتشنر مندوبا ساميا بريطانيا فقد منصبه فسعى إلى صهره ليجد له عملا يستوعب طاقاته ولكن المساعى التى بذلت لتعيينه فى مجلس إدارة شركة قناة السويس لم تجد نفعا. ووجد متنفسا فى خوض غمار انتخابات «الجمعية التشريعية» التى أنشأها الاحتلال ولم يوسع اختصاصاتها التمثيلية، فاصبح نائبا عن دائرتين من دوائر القاهرة ثم فاز بمنصب الوكيل المنتخب للجمعية الذى كان له الحق فى أن يحل محل رئيسها حين غيابه. ورغم ميله إلى اتجاهات حزب الأمة قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، إلا أنه لم يلتحق بأى من الأحزاب وبذلك توافرت له حرية فى العمل مكنته من التعامل مع مختلف الأطراف وتزعم المعارضة فى الجمعية التشريعية التى شكلت النواة التى قيض لها فيما بعد أن تقوم عليها جماعة «الوفد المصرى» التى سعت بعد انتهاء الحرب الى المطالبة بالاستقلال أو على الأقل إلى تنظيم الحماية .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن سعدا وغيره دهشوا لاندلاع ثورة ١٩١٩ التي لم يتوقعوا حدوثها أو يتصوروا كيفية حدوثها. وبعد الافراج عن المعتقلين فى مالطة لحق بهم مصريون آخرون وتوجه الجميع الى باريس لطرح قضية مصر على مؤتمر الصلح الذى أوصدت في وجوههم جميع أبوابه خاصة بعد اعتراف المنتصرين والمهزومين بالحماية البريطانية التى فرضت على مصر على أثر نشوب الحرب . وكانت الخلافات قد دبت بين قادة «الوفد» الذى تشكل في عام ١٩١٨ ونفى بعض اعضائه الى مالطة ومالبثوا أن حملوا هذه الخلافات إلى باريس. وقد عزى هذا الخلاف إلى أسباب متعددة منها محاولة بعض أعضاء الوفد بث الشائعات المثبطة للهمم عن طريق مراسلاتهم مع أصدقائهم وذويهم فى مصر فى الوقت الذى اختلف فيه أعضاء الوفد حول أسلوب العمل والتصرف فى الأموال التى كانت لدى الوفد بل عزيت هذه الاختلافات الى محاولة التفريق بين مؤسسي الوفد ومن انضموا اليه بعد تأسيسه أو بين المعتدلين والمتطرفين .

وآثر البعض، بعد فشل مساعيهم فى باريس، الرجوع الى مصر ومواجهة مواطنيهم بالفشل. وحين علم سعد باستياء كثير من المواطنين ممن عادوا واساءتهم استقبالهم وباستمرار تعلق الشعب به صرح لمن بقوا معه بأنه «يستحيل على أن أعمل مع المخالفين ولو ترتب على ذلك ضياع القضية» !! فى هذا الوقت الذى بدأ فيه

تصدع الجبهة المصرية رأت انجلترا أن الوقت قد حان لتحقيق «استمرار الحماية على أساس وطيد مشروع» وقررت إرسال بعثة إلى مصر لتحقيق أسباب سخط المصريين رأسها لورد ملنر وزير المستعمرات البريطاني. وبقيت هذه البعثة في مصر من نوفمبر ١٩١٩ حتى مارس ١٩٢٠. وقد قوبل وجودها بمظاهرات الاحتجاج عليها فى القاهرة والإسكندرية وفاضت الصحف بسيل من الرسائل التى تضمنت الاحتجاج عليها ومقاطعتها. وعمت أحياء القاهرة مظاهرات صاخبة هتفت بالاستقلال وسقوط اللجنة - بل عمت المظاهرات أرجاء القطر واتسمت بطابع العنف مما أدى الى سقوط مزيد من الضحايا .

وقبل الوفد الذى فشل فى باريس الاتصال بلجنة ملنر التى مالت الى ضرورة إلغاء الحماية واستبدالها بمعاهدة تقبل فيها مصر، فى مقابل تعهد بريطانيا بالدفاع عن سلامتها واستقلالها قبل استرشاد مصر بانجلترا فى علاقاتها الخارجية وأن تعطيها حقوقا معينة فى الأراضى المصرية تساعدها على حماية امبراطوريتها وغير ذلك من الحقوق فيما يتعلق بالتشريع والإدارة المصرية بخصوص الأجانب. وأرسلت اللجنة من يتصل بالوفد فى باريس ويدعوه الى لندن للمفاوضة التى قام بها عدلى يكن بعد أن قبل تأليف وزارة وصرح بأنه سيدعو الوفد - برئاسة سعد زغلول -

للاشتراك فى المحادثات وبأن الأمة سيكون لها على لسان ممثليها فى الجمعية الوطنية - القول الفصل فى هذا الاتفاق وأن الوزارة ستأخذ على عاتقها تحضير الدستور . وعرض عدلى على سعد الاشتراك فى المفاوضات فجاء رد هذا الأخير - وكان لا يزال فى باريس - أنه سيحضر إلى مصر . وفى مصر ألقى سعد القفاز وهاجم عدلى وإخوانه ووصفهم بأنهم «برادع الانجليز» وأنهم إذا ما تفاوضوا مع الانجليز فإن معنى ذلك أن «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس» وراح بعض أنصاره يتفوهون بأن الاحتلال على يده خير من الاستقلال على يد عدلى. والسبب فى هذا الخلاف أن «الوفد» كان يحمل فى طياته تناقضات صارخة بين الطبقات والفئات التى اشتركت فى ثورة ١٩١٩. ولما كان سعد ألصق بالجماهير وبالتنظيمات السرية والعلنية التى ارتبطت بالوفد فإنه آمن إيمانا شديدا بالتوكيل الذى أعطته الأمة للوفد واعتبر نفسه زعيما للأمة وفسر كل شىء فى ضوء هذه الزعامة حتى لو خرج من الوفد جميع أعضائه ! وظلت معركة المهاترة محتدمه بين سعد ووزارة عدلى قرابة شهرين انقسمت خلالهما الأمة إلى سعديين وعدليين. وكسب سعد الجولة وإن كان قد أسرف فى الخصومة ولم يتحرز فى رد خصومه بشتى الاتهامات .

ولتهيئة الجو للتسوية تم ابعاده عن مصر الى عدن ثم إلى سيشل ثم إلى جبل طارق، وفى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ صدر تصريح

بريطاني تضمن الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وألغى الحماية ولو أن بريطانيا احتفظت لنفسها بصورة مطلقة بأمور معينة حتى يحين وقت الاتفاق عليها خلال مفاوضات جديدة. وبعد التصحيح تألفت لجنة لوضع الدستور ندد بها سعد لأنه كان يرى أن وضع الدستور لابد أن يتم على يد لجنة منتخبة لا معينة حتى لا يكون الدستور منحة يسهل التلاعب بها. ورغم ذلك فقد قرر دخول الانتخابات طبقا لدستور ١٩٢٣ وأحرز وهو وأنصاره انتصارا لم يتوقعه خصومه وتألفت «وزارة الشعب» برئاسته وهى الوزارة التى تميزت بضيقه بالمعارضة واضطهاده لخصومه مصرحا بأنه كان يود أن تكون وزارته «زغلولية لحما ودما» ! وبينما الأمور فى أخذ ورد قتل السير لى ستاك القائد العام للجيش المصرى وحاكم السودان وقدم المندوب السامى إنذاراً لسعد قبل بعض شروطه ثم تقدم باستقالته للملك فؤاد الذى شكل وزارة أقلية برئاسة أحمد باشا زيور الذى حكم بالاتفاق مع السراى وحل البرلمان وأوقف الدستور ونكل بخصومه تنكيلا شديدا. وفى الانتخابات التالية فاز سعد وأنصاره ولو أن المندوب السامى حال دون ترؤس سعد للوزارة بحجة أنه مسئول عن مقتل السردار نتيجة لكون وزارته قد اثارت الهيجان ضد الانجليز. وتم الاتفاق على أن يرأس سعد مجلس النواب وأن يكون عدلى رئيسا لوزارة ائتلافية اشترك فيها الوفديون والأحرار الدستوريون. وقبل أن يتوفى سعد سعى إلى التقريب بين

الأحزاب ودمجها كلها ولكن بعد أن استشرى الانقسام الذى لعب هو دورا كبيرا فى التسيب فيه وتشكلت مصالح حالت دون التوفيق بين المتخاصمين على السلطة .

والذى أحب أن أؤكده قبل الانتهاء من كتابة هذا المقال هو أن سعد زغلول كان من أهم الشخصيات السياسية فى مصر المعاصرة وكان بإمكانه أن يستغل الشعبية التى أحاطت به فى إرساء تقاليد سياسية كان يمكن أن تقوم عليها ديمقراطية سليمة تستطيع أن تتصدى للمشاكل التى واجهتها البلاد. وهو المسئول عن تفتت القوى السياسية وانصراف الساسة إلى التطاحن والخصومات مما أضر بالبلاد ضررا بليغا .

مصطفى النحاس

١٨٧٩ - ١٩٦٥



● مصطفى النحاس يخطب في الوفد المصرى الكبير بأرض سراى الجزيرة يوم ١٩٣٨/٧/١

هـــو أحد الزعامات الرئيسية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر فقد رأس حزب الوفد ، حزب الأغلبية البرلمانية ، طيلة ربع قرن من الزمان أمتد فيما بين عامى ١٩٢٧ و ١٩٥٢ تولى خلاله رئاسة الوزارة خمس مرات وأقيل فى كل مرة . ولقد ظل طيلة حياته السياسية مخلصا للتوجيهات التى سار عليها الحزب منذ أيام سعد زغلول : السعى إلى تحقيق استقلال مصر التام والدفاع عن الديمقراطية فى مواجهة أو توقراطية القصر ودسائس الإنجليز ودعم الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط . ولكن مشكلة النحاس لدى توليه زعامة الحزب تكمن فى أنه ، رغم إفادته من الشعبية التى أحاطت بالحزب وزعيمه الأول ، لم تكن له الشخصية الطاغية والمهابة اللتان كانتا من سمات سعد زغلول مما ساعد على الانشقاقات التى حدثت فى صفوف الحزب خلال الأعوام ١٩٣٢ و ١٩٣٧ و ١٩٤٢ ولو أنه كان يعالج هذه الانشقاقات بضم أعضاء جدد . ولقد وصف السير مايلز لامبسون (المندوب السامى ثم السفير البريطانى فى مصر) النحاس عقب أول لقاء جرى بينهما بأنه أغرب شخص فى مصر وما لبث بعد ذلك

أن وصفه بأنه عصبى وغير متوازن ويفتقد المقدرة الإدارية والخبرة وبأنه مختال سيئ السلوك وهزلى كرجل دولة وإن يكن بطلا شعبيا باعتباره مؤيدا متعصبا للزغلولية على طول الخط . ورغم ذلك فقد اشتهر النحاس بطيبة قلبه وبنزاهتة ووطنيته التى لا تتزحزح . كما كان خطيبا عاطفيا بليغا له من الصفات ما يجذب إليه الجماهير والأفراد دون مشقة - هذا إلى ورعه واستقامة سلوكه ،

وقد انتمى النحاس إلى الطبقة الوسطى الدنيا التى شكلت الشريحة الأساسية لقواعد حزب الوفد ، وبعد أن أتم دراسته الحقوقية التحق بسلك القضاء ومال إلى مبادئ الحزب الوطنى (حزب مصطفى كامل ومحمد فريد) بعض الوقت ، وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى كان أحد أعضاء الوفد الذى تشكل للمطالبة باستقلال مصر عن بريطانيا والتوجه من أجل ذلك إلى العاصمة الفرنسية حيث انعقد مؤتمر الصلح ، وبعد رفض بريطانيا السماح لأعضاء الوفد بالسفر وقبضها علي سعد زغلول ورفاقه اندلعت ثورة ١٩١٩ التي اشترك فيها النحاس وما لبث أن أصبح من أبرز أنصار سعد يتعلق بتنظيم الطلبة للقيام بالعمل السياسى . وفى عام ١٩٢١ نفى مع سعد إلى سيشل ثم عاد إلى مصر فى عام ١٩٢٣ بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى منح مصر استقلالا مشروطا . وحين أجريت

الانتخابات البرلمانية طبقا لدستور ١٩٢٣ رشح النحاس نفسه عن دائرة سمنود مسقط رأسه - وفاز فى الانتخابات ثم تولى وزارة المواصلات فى وزارة الشعب التى رأسها سعد زغلول (يناير - نوفمبر ١٩٢٤) كما فاز من جديد فى الانتخابات التى أجريت فى عام ١٩٢٦ ، ورغم أن حزب الوفد كان يرغب فى أن يمثله النحاس فى الوزارة الائتلافية التى تشكلت فى يونية ١٩٢٦ فإن المندوب السامى البريطانى اعترض على تعيينه ، فانتخب نائبا لرئيس مجلس النواب سعد زغلول الذى اعترض المندوب السامى على تعيينه رئيسا للوزراء على زعم مسئوليته عن مقتل السردار في عام ١٩٢٤ .

وانتخب النحاس بعد وفاة سعد زغلول فى أغسطس ١٩٢٧ زعيما لحزب الوفد بعد أن جرت منافسة بينه وبين فتح الله بركات قريب سعد على الفوز بهذا المنصب . ومن المحتمل أنه كان لمحمود فهمى النقراشى وصفية زغلول - أرملة سعد - دور فى هذا الاختيار : فقد نظم النقراشى تظاهرة أمام المكان الذى جرى فيه الاقترا ع وأيد اختيار النحاس ، فى حين أن من المحتمل أن صفية قد انحازت إلى النحاس الذى سمح لها بأن يكون لها رأى فى شئون الحزب وهو مالم يكن فتح الله بركات

على استعداد للتسليم به . وعلى أية حال فقد كان النحاس هو الشخص الثانى فى الوفد بعد سعد زغلول وكان قد اكتسب شهرة بسبب نزاهته ونظافة يده - ورغم أنه كان على صلة وثيقة بعدد من أكثر الوفدين تطرفا فليس معنى هذا أنه كان ألعوبة فى أيديهم .

وتولى النحاس فى مارس ١٩٢٨ رئاسة الوزارة لفترة قصيرة مالبث الملك فؤاد أن أقاله بعدها . وخلال حكومة محمد محمود « الحديدية » أمكن للنحاس أن يحافظ على ولاء حزب الوفد برغم مناوأة الجناح المعتدل له . وفى أوائل عام ١٩٣٠ تولى رئاسة الوزارة من جديد وأجرى مفاوضات مع الإنجليز مالبثت أن فشلت على صخرة السودان وحينئذ قال النحاس قولته الشمهورة : خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز ! ثم أقيل النحاس للمرة الثانية ليفسح المجال لوزارة إسماعيل صدقى التي ألغت دستور ١٩٢٣ ، وحينئذ اشترك الوفد مع حزب الأحرار الدستوريين فى التصدى لوزارة صدقى بكل الوسائل المتاحة إلى أن اختفى صدقى عن المسرح فى عام ١٩٣٣ وحينئذ نشط النحاس وحزبه فى المطالبة بإعادة دستور ١٩٢٣ وهو ما تم فى أواخر عام ١٩٣٥ . وفى العام التالى حصل الوفد على أغلبية كبيرة فى الانتخابات وترأس النحاس

الجبهة الوطنية التى ضمت كل الأحزاب وتفاوضت مع بريطانيا حول عقد معاهدة بين الطرفين تنص علي الاستقلال وتحدد علاقة مصر ببريطانيا .

فقد أجريت المفاوضات فى الوقت الذى لاحت فيه بوادر الحرب العالمية الثانية وبرز التهديد الفاشى لحدود مصر الغربية وللسودان بعد اعتداء موسوليني على الحبشة . وبالفعل تم التوقيع على معاهدة ١٩٣٦ التى كرست الاحتلال وسجلت نقطة انتقال حاسمة فى تاريخ مصر : فقد أقنع الزعماء الوفديون الشعب بأنهم حصلوا على « الشرف والاستقلال » مما أدى إلى انحسار المد الوطنى حين توهم المصريون أنهم قد حصلوا على الاستقلال فانصرفوا وصرفتهم الأحزاب إلى الصراع المرتبط بتقلبات الحكم فى حين قنعت السلطات البريطانية بالتدخل من وراء ستار مما أدى إلى احتدام النضال السياسى بين الوفد والقصر الذى كان يود أن يملك وأن يحكم .

ويذكر كيلرن سفير بريطانيا بعد المعاهدة - وكان قبل ذلك مندوبا ساميا - أن النحاس وزملاءه قد انشغلوا بعد المعاهدة إلى حد كبير بالأحاديث والمناسبات الاجتماعية وأنه كرس الوقت القليل الذى أمكنه قضاؤه فى مكتبه لإرضاء مطامع أتباعه الذين عينهم فى كثير من المناصب الرئيسية مما أتاح للملك فاروق فرصة لإقالة الوزارة ، وظل النحاس وحزبه فى

صفوف المعارضة حتى اقتراب القوات الألمانية من الاسكندرية فى أوائل عام ١٩٤٢ ، وكانت إيطاليا قد انحازت إلى ألمانيا بعد سقوط فرنسا وسمحت لها بنقل بعض قواتها إلى ليبيا التي كانت حينئذ مستعمرة إيطالية وقد أدت هذه التطورات إلى نشوب أزمة سياسية فى مصر كانت من مقدمات حادثة ٤ فبراير الشهيرة . فإزاء الخطر الذى كان يحيط ببريطانيا وامبراطوريتها نتيجة للانتصارات التى احرزتها ألمانيا منذ نشوب الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ ، أصرت الدوائر البريطانية على أن يتولى النحاس - زعيم الجبهة التى وقعت معاهدة ١٩٣٦ - رئاسة الوزارة ، على اعتبار أن بإمكانه أن يواجه القصر - الذى كانت له صلة بالقوى الفاشية - ويمسك بزمام الحكومة والبرلمان ويرضى الجماهير ويحشدها لتأييد المعاهدة وجهود الحلفاء الحربية . ولمواجهة الضغط البريطاني الهادف إلى تولي النحاس للحكم على كره من الملك فاروق سعت دوائر القصر إلى تشكيل وزارة إئتلافية يرأسها النحاس وهى تعلم علم اليقين مدى كره النحاس لهذا النوع من الوزارات وحين رفض النحاس عروض القصر بهذا الصدد حوصر قصر عابدين بالدبابات البريطانية وخير الملك ما بين قبول النحاس رئيسا للوزارة وبين تنازله عن العرش ، ورضخ الملك فاروق أمام

التهديدات البريطانية فكلف النحاس بتشكيل الوزارة . ولقد أدى قبول النحاس للحكم بهذا الشكل وفى مثل هذه الظروف إلى تعرضه لكثير من الاتهامات . بل لقد اعتبر بعض الضباط هذه الحادثة مساسا بكرامة البلاد وسيادتها مما استتبع إرهاصات التشكيلات السياسية داخل الجيش . ولا يزال تقويم حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ مثارا للجدل حتى الوقت الحاضر : فالمتعاطفون مع الوفد يعتبرون قبول النحاس للحكم فى ذلك الوقت انحيازا للديمقراطية ضد الفاشية وإنقاذا للبلاد من فرض السيطرة البريطانية المباشرة عليها ، فى حين اعتبره خصومه تآمرا على استقلال البلاد واستسلاما للمستعمر .

ولكى تأخذ دوائر القصر ثأرها من الاذلال الذى وجه إلى شخص الملك ، فإنها عملت على استقطاب مكرم عبيد الرجل الثانى فى الوفد أملا فى أن يؤدى ذلك إلى تصدع حزب الأغلبية . وكان مكرم قد انتخب سكرتيرا عاما للوفد فى عام ١٩٢٧ فشغل المكان الذى سبق للنحاس أن شغله ، وكان مكرم والنحاس وثيقى الصلة بحيث كان كل منهما يكمل الآخر ، فلقد كان مكرم رفيق النحاس ومستشاره الدائم – فلقد كانا ينتميان إلى جيل واحد ويشتغلان بالمحاماة ، كما اشتركا فى المنفى وفى وجهات النظر بحيث شكلا معا جبهة سياسية قوية . وكان

مكرم قد استغل نواحى القصور فى شخصية النحاس لكى يعزز مكانته هو خاصة وأنه كان خطيبا بارعا بإمكانه التأثير فى الجماهير بالإضافة إلى مهارتة كمفاوض يجيد اللغتين الإنجليزية والفرنسية إجادته لإصطناع المنطق السياسى الأوربى نتيجة لدراستة فى انجلترا وفرنسا وزيارته لعاصمتيهما فى مهمات سياسية وإعلامية . وفى المقابل كان النحاس بسيطا صريحا وطيب القلب ولم يكن مفاوضا ماهرا بإمكانه التعامل مع العقلية الأوربيـة . وبمرور الزمن فرض مكرم نفسه على النحاس وأصبح المهندس الحقيقى لقرارات الوفد . وليس معنى هذا أننا نجارى من يذهبون إلى أن مكرم كان يسيطر على النحاس ، إذ لو كان النحاس ضعيف الشخصية لما أحرز ثقة سعد زغلول وتدرج فى سلم حزب الوفد- ولو أن هذا التفسير وحده لا يكفى، إذ إن كثيراً من الشخصيات المتسلطة لا تحتمل وجود شخصيات قوية بجوارها بل تفضل أن يكون حولها إمعات .

وإلى جانب مؤامرات القصر لفصل قطبى الوفد كل منهما عن الآخر دخلت إلى الساحة السيدة زينب الوكيل حرم النحاس التى يقال إن لمكرم يدا فى زواجها . ولما كان فارق السن كبيرا بين زعيم الوفد وزوجته الطموح (فقد تزوجها قبل يومين من عيد ميلاده الخمسين فى الوقت الذى كان فيه عمرها ٢٣ سنة) فإنها

شاعت أن تستغل فرصة وصول زوجها إلى الحكم لكى تثرى وتثرى أقاربها - فقيل إنها كانت تتدخل بصورة مباشرة لدى الوزراء لتعيين أو ترقية أقربائها الذين رفض مكرم منحهم الامتيازات والاستثناءات فى أذونات للاستيراد والتصدير فى الوقت الذى أقر فيه النحاس ووزراؤه الترقيات الاستثنائية للوفديين الذين بقوا خارج الحكم منذ عام ١٩٣٧ بعد أن رفضها مكرم الذى يبدو أنه قرر الانفصال عن الوفد وسحب أكبر عدد من الأعضاء معه ، إن لم يكن قد داعبه الأمل فى تولى رئاسة الوزارة بعد أن يزعزع مركز النحاس مستعينا فى خططه بما لمسه من فساد الوزارة . واعتبر النحاس نشاط مكرم تهديدا لسلطته فى الحزب ، خاصة وقد كان لمكرم أتباع كثيرون خارج وداخل الحزب ، فقد كان يستند إلى تأييد العمال وشباب الحزب ، ولما كان يعتقد أن النحاس لا يمكنه الاستغناء عنه ، فقد مضى فى خصومته إلى آخر الشوط مما استتبع طرده من الوزارة فى ٢٦ مايو ١٩٤٢ ثم فصله من الحزب بعد وقت قصير . ثم رفع مكرم شعار «نزاهة الحكم» ضد فساد الوفد وألف «الكتاب الأسود» الذى روى فيه أخبار فضائح الاستثناءات والمحسوبية لصالح أقارب النحاس وأقارب وزرائه ورد النحاس على ذلك بطرد مكرم وأنصاره من عضوية مجلس

النواب وحينئذ أثبت مكرم أن قوة خصومته لا تقل عن قوة صداقته ، فمضى فى تحديه لصديقه السابق وبخاصة بعد إنشائه جريدة «الكتلة» وحزب «الكتلة الوفدية» وكيله الاتهامات للنحاس وحزبه بصورة تكاد تكون يومية . ولكنه مضى فى خصومته إلى الحد غير المعقول وهو لا يدرى أنه أصبح ألعوبة فى يد القصر . وما لبث أن ندم بعد ذلك وحاول بشتى الطرق أن يسترجع مكانته السابقة ولو أن النحاس لم يصفح عنه أبدا .

وبعد أن خفت القيود المفروضة على مصر نتيجة للحرب العالمية وذلك بعد أن تحولت مجريات الحرب بصفة أكيدة إلى جانب الحلفاء سمح الإنجليز للملك فاروق بإقالة النحاس وذلك فى أكتوبر ١٩٤٤ وعاد الوفد إلى المعارضة من جديد مصرا فى خلال المفاوضات التى جرت بين مصر وبريطانيا فى أعقاب الحرب على أن يكون هو على رأس المفاوضين ، وحين قدم النقراشى شكوى مصر إلى مجلس الأمن فى عام ١٩٤٧ أبرق النحاس إلى المنظمة الدولية ليفيدها بأن النقراشى لا يمثل الشعب المصرى - بل لقد قيل فيما بعد إن المفاوضات التى أجراها النحاس من أجل إنشاء الجامعة العربية قبيل إقالته كانت تستهدف سحب البساط من تحت أقدام الملك فاروق الذى كان يتطلع إلى الخلافة وزعامة العالمين العربى والإسلامى .

وسعى فاروق فى تلك الأثناء إلى استبعاد الوفد عن الحكم إلى أجل غير مسمى ، فساند الحكومات الائتلافية التى شكلتها «أحزاب الأقلية» بل لقد فكر فى أعقاب هزيمة ١٩٤٨ أن يقيم دكتاتورية عسكرية يترأسها هو شخصيا بحيث يسهل عليه أن يتوصل إلى عقد اتفاقية مع بريطانيا والدول الغربية الأخرى التى أسلمت قيادتها للولايات المتحدة الأمريكية بالصورة التى ترضى الرأى العام المصرى وتعزز مكانته ولكن الدوائر البريطانية لم تسلم بخطط الملك وأصرت على أن تجرى المفاوضات فى هذه المرة مع حكومة ذات قاعدة شعبية تستطيع أن تقنع الشعب بما يمكن التوصل إليه . وهكذا جاء الوفد إلى الحكم للمرة الأخيرة فى يناير ١٩٥٠ وسعى دون إبطاء إلى التوصل إلى حل للقضية المصرية مهددا بريطانيا بأنه سيقدم على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ إذا استحال التوصل إلى حل مرضٍ ، وهو ماتم فى ١٥ أكتوبر حين ألغت حكومة الوفد معاهدة ١٩٣٦ من طرف واحد ولكى تحرج مركز البريطانيين فإنها أمرت العمال المصريين العاملين فى الثكنات البريطانية بترك أعمالهم وسمحت للفدائيين بالنشاط فى المناطق التى تقوم فيها المعسكرات البريطانية . ولما كانت الحكومة البريطانية قد عولت على أن تتخذ موقفا صلبا فإنها واجهت الفدائيين وأمرت قوة

البوليس المصرية فى الإسماعيلية بتسليم سلاحها وإلا تعرضت للقصف (٢٥ يناير ١٩٥٢) واستشهد كثير من الجنود المصريين الذين أصدرت إليهم الوزارة أوامرها بالصمود إلى آخر طلقة رغم أن أسلحتهم كانت لا تمكنهم من مواجهة القوات البريطانية .

وكان حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ فى القاهرة نتيجة لمجزرة الإسماعيلية - وقد استغله الملك فاروق فى الإطاحة بحكومة الوفد للمرة الأخيرة بعد أن حدا بها الارتجال إلى الغاء معاهدة ١٩٣٦ دون اتخاذ أى استعدادات لمواجهة الموقف وإصدارها الأوامر إلى قوة البوليس العاملة فى الإسماعيلية بالمقاومة إلى آخر طلقة. فمثل هذه الأعمال الارتجالية لم تكن تستهدف سوى استعادة شعبية حزب الوفد التى تزعزت منذ عام ١٩٤٢ بوجه خاص نتيجة لما آثاره حادث ٤ فبراير من ردود فعل قوية .

ودفع النحاس وحزبه ثمن هذا الارتجال - فقد كانت أحداث أواخر عام ١٩٥١ وأوائل ١٩٥٢ بداية النهاية بالنسبة إلى « العهد القديم » الذى بدا وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة . وحين قامت ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ وخلعت الملك فاروق كان النحاس يستشفى فى فرنسا ، فبادر بالعودة إلى القاهرة وهو يمنى النفس بتسلم الحكم بصفته صاحب الأغلبية النيابية فى البرلمان المعطل منذ حريق القاهرة ، إلا أن « الضباط الأحرار »

لم يمكنوه من تحقيق حلمه ، بل قاموا بإلغاء الأحزاب جميعا وإلغاء دستور ١٩٢٣ ، منددين بفساد الحياة النيابية فى البلاد ومعولين على الاستمرار فى تحمل مسئوليات الحكم . وظل النحاس منعزلا عن الحياة العامة ، ولو أنه يسجل له موقفه الوطنى خلال عدوان ١٩٥٦ الثلاثى حين رشحته الدوائر البريطانية لتولى الحكم فى حالة القضاء على النظام الجديد فى مصر . وحين توفى فى أغسطس عام ١٩٦٥ خرجت جماهير القاهرة لتودعه الوداع الأخير برغم القيود التى كانت مفروضة آنذاك على التجمعات العامة .

وقبل أن نختتم هذا المقال تجدر الإشارة إلى أن النحاس لم يتول الحكم سوى فترات قصيرة برغم نجاح حزبه فى كل انتخابات حرة يخوضها ، مما جعله فى أواخر الخمسينات أميل إلى مهادنة القصر ولو أن ذلك قد أحدث رد فعل شديدا من جانب القوى الصاعدة فى الحزب التى عرفت باسم « شباب الوفد » . على أننا لابد أن نضع نصب أعيينا أنه لم يكن من السهل أن تستقيم الحياة النيابية فى مصر وبريطانيا تستبقى قواتها على أراضيها وتنفذ سياستها بتطبيق أسلوب «فرق تسد» فهى طورا مع حزب الأغلبية وطورا إلى جانب القصر ، مما أصاب الحياة السياسية فى مصر بالشلل . ورغم ما

سجلناه من مآخذ على النحاس وممارسته « للحكم فإنه وفر للبلاد زعامة كان لها وزنها فى سياسة البلاد ، وبالتالى فلابد أن يحتل المكانة اللائقة به فى سجل الزعماء الوطنيين الذين كافحوا في سبيل الاستقلال والديمقراطية . ولكن ليس معنى ذلك أننا نغض الطرف عن أخطائه - إذ ليس الزعماء معصومين كما أنهم ليسوا فوق مستوى المحاسبة من جانب الكتاب والمؤرخين الذين يتوخون الموضوعية بالاشارة إلى كل من السلبيات والإيجابيات ولا يقبلون بالنظرة الواحدة إلى الأشياء والأشخاص ، بل يصطنعون الحكم الشامل على الأحداث ومن شاركوا فيها دون نظرة مسبقة ناتجة عن الالتزام الضيق . فالشعوب الناضجة تنتقد زعماءها فى حياتهم وفى مماتهم فى الوقت الذى تسجل فيه مآثرهم وذلك دون انزلاق إلى مستوى عبادة الأصنام وتأليه البشر الذين كتب عليهم الفناء . وسأكرر هذه المقولة حتى يجئ الوقت الذى تعم فيه النظرة الإنسانية والعقلانية أحكامنا التاريخية دون أن نحسب على الكاتب رأيا لا يخالف رأينا أو نلتقط له فلتة قلم أو زلة لسان فنبنى عليها مواقف قد لا تستند إلى أساس .

اسماعيل صدقي

١٨٧٥ ـ ١٩٥٠



● اسماعيل صدقى

ينتمى إسماعيل صدقى إلى الجيل العملاق الذى ظهر فى مصر دفعة واحدة خلال النصف الأول من القرن العشرين . ولم يقتصر نشاط هذا الجيل وإبداعه على مجال واحد . بل لقد تنوعت المواهب فى كل ميدان سواء فى الناحية السياسية أو الثقافية أو الفنية أو القانونية أو الاقتصادية .. إلى غير ذلك .

وفى المجال السياسى يؤكد مؤرخنا الراحل محمد شفيق غربال أن من برزوا فى أعقاب ثورة ١٩١٩ من الكثرة بحيث إننا قد لا نجد لهم نظيرا فى أى بلد آخر . حقيقة لقد اختلفوا وتصارعوا أو ائتلفوا، ولكن معظمهم كانوا مخلصين فى الكفاح من أجل الاستقلال والتخلص من النفوذ الأجنبى . ومن هؤلاء اسماعيل صدقى الذى غمط حقه ولم تُقيّم أعماله فى إطارها الحقيقى ، ومن ثم ما اشتهر به من حيث كونه «عدو الشعب» وذلك لواقعيته ومقته للحزبية ، وصراحته التى كثيرا ما كانت تصدم الرأى العام الذى تملقه الساسة العاملون على الساحة جريا وراء تصفيق الجماهير تمهيدا للوصول إلى الحكم . فقد وضع نصب عينيه تقوية السلطة المركزية والمواءمة بين المؤسسات الدستورية التى أقيمت فى أعقاب ثورة ١٩١٩ وبين أوضاع البلاد التى لم يراعها دستور ١٩٢٣ الذى قال عنه عبد العزيز فهمى إنه ثوب فضفاض . وأهم من هذا أن

المستعمر البريطاني كان كثير التدخل في شئون البلاد في الوقت الذى كان فيه الملك فؤاد يود أن يملك وأن يحكم في حين كان حزب الوفد يحرز الأغلبية البرلمانية في كل انتخابات حرة . ولعل أهم الأدوار التي قام بها صدقي في تاريخ مصر الحديث يتمثل في رئاسته لمجلس الوزراء المصرى فيما بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٣٣ وهى أطول فترة أمضاها رئيس وزراء مصرى في الحكم في العهد الملكي . ولقد أطلق عليه خصومه لقب «عدو الشعب» الذى سبق أن أشرنا اليه ولصق به فترة طويلة : ولو أن المعجبين به قد خلعوا عليه لقب «رب الكفاءات» بسبب تنوع مجالات خبراته ونشاطاته : فقد كان محيطا بالتيارات العالمية والمحلية كما كان واقعياً متمرساً بشئون الإدارة والاقتصاد والمال .. ومن ثم كان وصف الدوائر البريطانية له على الوجه التالي : «لا شك في ذكائه الوقاد وهو على كفاءة عظيمة وبخاصة في النواحي الادارية بالاضافة الى دأبه وشجاعته وإن كان أميل إلي التآمر وعدم توخى الصدق فيما يقول وذلك رغم التزامه بالوفاء بوعوده» .. «وذهنه صاف ومتوقد بشكل يدعو إلى الالتفات، وهو المصرى الوحيد الذى تمثل المحادثة معه شيئاً شائقاً، وأثناء توليه رئاسة مجلس الوزراء أثبت كفاءة لا يضاهيه فيها أحد من الساسة المصريين (إذ كان يعمل أحياناً لمدة ١٨ساعة يومياً) .

ولد صدقى فى الاسكندرية فى أسرة ميسورة الحال وفدت إلى المدينة من إحدى قرى محافظة الغربية وتولى بعض أفرادها وظائف حكومية هامة : فقد كان جده محمد سيد أحمد باشا رئيسا لديوان والى مصر، كما كان والده أحمد شكرى محافظاً للقاهرة فوكيلاً لوزارة الداخلية فمديراً لإدارة السودان . وكان أحمد شكرى اداريأ نشطاً وطموحاً، وقد عاد من بعثته إلى فرنسا شديد الحماسة للتحديث والانفتاح على الحضارة الغربية ، أما والدة صدقى فكانت ناظرة لإحدى المدارس وفى طليعة المطالبات بحقوق المرأة - ولما كان إسماعيل أصغر أبنائها فقد كانت أميل إلى استبقائه معها فى المنزل حيث كانت تتولى تلقينه مما أدى إلى ولعه بالقراءة وجنوحه إلى الخيال وتأمله أوضاع مصر فى ظل الاحتلال مما أورثه ميلاً فطرياً إلى الاقتصاد والشئون المالية والتاريخ . ولما كان أبوه معجباً بالثقافة الفرنسية فقد ألحقه بمدرسة الفرير حيث أتقن اللغة الفرنسية ولفتت كفاءته وذكاؤه انتباه نظار مدرسته مما أورثه ثقة بالنفس وشعوراً بالتفوق . ثم التحق بالمدرسة الخديوية حيث تحسنت لغته العربية وأبدى اتجاهات وطنية، وفى عام ١٨٩٤ حصل على ليسانس الحقوق وعين كاتباً بالنيابة ثم سكرتيراً إدارياً لبلدية الاسكندرية ورئيساً لقسم القضايا بها وفى عام ١٩٠٨ عين سكرتيراً عاماً لوزارة الداخلية، ثم ما لبث أن أصبح وكيلاً لهذه

الوزارة . وفى عام ١٩١٤ عين وزيراً للزراعة ووضع مشروعاً لإنشاء الجمعيات التعاونية وأنشأ المجلس الفنى الأعلى للزراعة، ثم عين وزيراً للأوقاف ، وفى مايو ١٩١٥ أعفى من منصبه على أثر فضيحة أخلاقية أدت إلى انتحار إحدى الفتيات، وكان ذلك سبباً فى التردد فى ضمه إلى الوفد الذى تشكل بعد انتهاء الحرب للمطالبة بالاستقلال وإن يكن قد عين رئيساً للجنة اهتمت بدراسة أثر الحرب على الاقتصاد المصرى، مما جعله يهتم بالجانب الاقتصادى من المسألة المصرية . ولما كانت هذه اللجنة قد حصلت على معلومات خاصة بالبناء الاقتصادى - الاجتماعى للمجتمع المصرى وبحثت نواحى ضعفه وإمكانياته ووضعت تصوراً اقتصادياً بناء فقد اتجه سعد زغلول إلى ضمه إلى الوفد برغم معارضة الكثيرين . ثم اشترك صدقى فى النشاط الوطنى ضد الانجليز مما أدى إلى نفيه مع سعد زغلول وحمد الباسل ومحمد محمود إلى مالطة فى مارس ١٩١٩ . وبعد اطلاق سراح سعد ورفاقه رافق صدقى الوفد إلى باريس لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح وتولى سكرتارية الوفد ، ورغم القيود التى فرضها الانجليز على تحركات الوفد المصرى فإن إتقان صدقى للغة الفرنسية وتعرفه على الأوساط الأوربية ومواهبه المتعددة جعلته يحرز بعض النجاح فى خدمة القضية الوطنية . ولكنه سرعان ما

تبين أن مطالب مصر لن تنجح فى إطار دولى ومن ثم كان اتجاهه إلى معارضة سعد الذى طرده من الوفد فعاد إلى مصر وتبعه بعض أعضاء الوفد ليستأنف نشاطه الوطنى بالشكل الذى ارتاه : فهو - كما قال عن نفسه في مذكراته - لا يميل إلى تحكيم العواطف بل إلى الواقع المفيذ والى الوصول إلى النتائج، خاصة وقد استاء من خداع رجال الحركة الوطنية لأنفسهم ومما اعتبره «بلاهة» لدى المصريين . وقد أدى نشاطه الوطنى إلى ابعاده عن العاصمة إلى قريته الغريب ولو أن ذلك لم يغير رأى الجماهير فيه مما أكد احتقاره «لجهلها وعاطفيتها» وجعله يمقت الاستبداد والحزبية وعبادة الفرد .

ولما كان المعتدلون أكثر استعداداً للتفاوض مع الانجليز حول التوصل إلى معاهدة تنظم علاقات بريطانيا بمصر، فقد تعاون صدقى معهم وانضم إلى فريق عدلى يكن الذى ألف وزارته فى مارس ١٩٢١ وشغل فيها صدقى منصب وزير المالية، كما اشترك فى وزارة عبد الخالق ثروت (مارس - نوفمبر١٩٢٢) وأصبح أقرب مستشاريه بحيث كان يوجه نشاط الوزارة ككل ولعب دوراً هاماً فى إصدار تصريح ٢٨فبراير١٩٢٢ الذى أعلن استقلال مصر مع تحفظات أربعة يجرى التفاوض حولها بين مصر وبريطانيا فى المستقبل، ثم تألفت اللجنة التى وضعت دستور١٩٢٣ الذى جرت الانتخابات على أساسه وأحرز فيها سعد زغلول وأنصاره أغلبية

كبيرة - ومما يجدر ذكره أن صدقي لم يوفق في هذه الانتخابات، وبعد استقالة سعد على أثر مقتل السردار في أواخر عام ١٩٢٤ تقلد صدقي وزارة الداخلية في وزارة أحمد زيور التي تألفت في ديسمبر١٩٢٤ وأعلنت أنها ستعمل على « إنقاذ ما يمكن إنقاذه» في مواجهة الانذار البريطاني الذي وجه إلى سعد زغلول وأدى إلى استقالته، وبادر صدقي إلى حل مجلس النواب وإيقاف الدستور وحاول تنظيم الادارة وإعادة الثقة لدى الموظفين الذين تضرر بعضهم من محاباة سعد لأنصاره، ثم شن حملة ضدهم خلال الانتخابات التي أجريت وأعلنت الوزارة على أثرها أن الاحزاب غير الوفدية نالت الأغلبية . على أن صدقي لم يبد استعداداً لجعل تسلط القصر أساساً للأوتقراطية الملكية في الوقت الذي جزع فيه الملك فؤاد - الذي تلاعب بالحياة السياسية والدستورية - من ازدياد سلطة صدقي ولهذا قبلت استقالته دون تردد وإن يكن قد لعب دوراً هاماً في عام ١٩٢٦ في تشكيل الحكومة الائتلافية التي اشترك فيها الوفديون والاحرار الدستوريون والحزب الوطني وكانت تستهدف تقليص سلطة القصر وإعادة الدستور . وفيما بين عامي ١٩٢٦ و١٩٢٨ كان صدقي عضواً نشطاً بمجلس النواب وتولى إدارة البنك الألماني - ولما كان الملك لا يطمئن اليه ولا يثق فيه فإنه انكب على مجال الأعمال ووسع علاقاته بالمصالح الاجنبية : فرأس شركة الكهرباء المصرية وشركة سكر كوم أمبو وشركات مختلفة

أخرى ، وفى عام ١٩٢٩ أصبح نائباً لرئيس اتحاد الصناعات، ولكنه، من ناحية أخرى، جعل من البرلمان منبراً لعرض آرائه الخاصة بالاصلاح الاجتماعي والاقتصادى، فلفت النظر إلى أهمية مشروع خزان جبل الأولياء فى جنوبى السودان وإلى ضرورة بناء محطة لتوليد الطاقة فى أسوان.

وفى يونية ١٩٣٠ تولى صدقى رئاسة الوزارة مع احتفاظه بوزارتى المالية والداخلية . وخلال السنوات التى تولى فيها الحكم أبدى كفاءة عالية فى التصدى للمشكلات الادارية والسياسية الصعبة التي واجهته في بداية حكمه شبه الدكتاتورى . وكان من رأيه أن التغلب على تجاوزات الحركة الوطنية أمر لازم للتوصل إلى الرخاء والتطور، ومن ثم كان ازماعه إيقاف الوفد عند حدوده وأن يعهد بالادارة الى عناصر تتميز بالقدرة والكفاءة وأن يتوصل إلى معاهدة مع الانجليز . ومن رأيه أن «فريق الأوتقراطية» أى الوفد - كان قد جرب عدة مرات فى الحكم فأبدى فيها عجزاً وأوشك أن يلحق كل مرة بالبلاد وسمعتها ضرراً بليغاً - ذلك أنه لم يسلك فى الحكم السبيل المستقيم، فقد شغل باستدامة أسباب النفوذ والسلطان لنفسه وبتوفير وجوه المنافع لأنصاره والثأر من خصومه رغم ما يقتضيه الحكم من توفر على النظر فى حاجات البلاد وضروب الاصلاح ... ولا شك أن داء البلاد الوبيل كان فى ذلك

الحين طغيان فئة اتخذت من الدعاية التى تنشرها بين الناخبين ، والنواب جميعاً سبباً ممدوداً للحكم والتحكم، فإن هى أقصيت عن الحكم حاولت استثارة عطف الجماهير بدعوى اضطهادها ... فهى فى سبيل مصلحتها الخاصة كانت تصرف البلاد عن سبيل الخير وتشغلها عن حل مشاكلها وإصلاح شئونها » . إلا أن خصومه ذهبوا إلى أن الذى رشحه للوزارة هو نفوذ المصالح المالية فى مصر فى الوقت الذى ظهرت فيه بوادر الأزمة الاقتصادية العالمية التى عرضت الأمن للخطر وهددت النظام . وعلى أى حال فقد اشترط صدقى لتأليف وزارته أن ينظم الحياة النيابية «تنظيماً جديداً» يتفق ورأيه فى الدستور واستقرار الحكم، فألف وزارته من أعضاء فى حزب الاتحاد ومن الحزب الجديد الذى ألفه (حزب الشعب) الذى قال بصدد تأليفه له إنه رغم عدم ميله للحزبية ونفوره من التقيد بالأحزاب فإنه رأى الأبد للوزارة من استنادها إلى أغلبية برلمانية خاصة بعد اعتذار الاحرار الدستوريين عن الانضمام إلى وزارته وائتلافهم مع الوفد .

ولما كان حزب الشعب وليد السلطة فقد نما سريعا ، وكان يضم عناصر تقليدية من الأعيان والموظفين السابقين والمهنيين وعدداً غير ثابت من أفندية العاصمة والمراكز الحضارية بما فى ذلك المقاولون والتجار وموظفو المؤسسات التجارية ، وأخذ زعماء الوفد

بعد تأليف وزارة صدقى ينشطون فى عقد الاجتماعات التى هاجموا فيها الحكومة فلم تلبث أن نشبت مصادمات دموية بين الأهالى وبين الجيش والبوليس وبخاصة فى القاهرة والمنصورة والاسكندرية وبورسعيد . ولكن لما كانت وزارة صدقى تهدف إلى توقيع معاهدة مع الانجليز فإنها بادرت باجراء الانتخابات بحيث يستند صدقى إلى برلمان يساعده على التوصل إلى المعاهدة المرجوة . على أنه كان يفكر فى مواجهة الأوضاع المحتدمة فى البلاد دون القيام باجراء غير دستورى بل بأن يسلك طريق التعديل الذى رسمه دستور ١٩٢٣ . لهذا أصدر دستوراً جديداً فى أكتوبر ١٩٣٠ بمرسوم ملكى ، وكان يختلف اختلافاً جوهرياً عن دستور ١٩٢٣ ، فقد منح الملك سلطات تشريعية واسعة ومنح سلطات للسلطة التنفيذية خلال العطلة البرلمانية وخوّل للملك إصدار قوانين مالية ونص على عدم صدور قانون لا يوافق عليه الملك وجعل عدد الشيوخ المعينين ثلاثة أخماس المجموع الكلى بدلاً من خمسى الأعضاء طبقاً لدستور ١٩٢٣ وعدل قانون الانتخابات بحيث يعطى الأعضاء الذين يعينهم الملك آمالاً واسعة فى الانتخابات .

واشترك الوفديون والأحرار الدستوريون فى مهاجمة دستور صدقى وإن يكونوا قد منعوا من عقد الاجتماعات مما أدى إلى اشتداد الصدام بين الوزارة وخصومها . على أن صدقى لم يكترث

بذلك ومضى ينفذ برنامجه فأعاد تنظيم الادارة وأقر حكومة جمعت بين الفعالية والتمثيل النيابي . ثم كرس جهده لوضع سياسة تستند إلى حماية الاقتصاد المحلى وتسعى إلى تنشيط الاقتصاد وتنويعه وذلك لمواجهة كل من الأزمة الأقتصادية العالمية والفاشية . لهذا نجده يهتم بمحصول القطن وينظم سياسة التصدير ويسعى إلى خفض تكاليف الحياة وضبط المالية العامة وإعادة تنظيمها وموازنة الميزانية ودعمها ومعالجة التضخم . ومن الاجراءات التى اتخذها تنظيمه للتعيينات والعلاوات والترقيات مما أدى إلى سخط صغار الموظفين فى الوقت الذى حاول فيه القضاء على البطالة . كما تمت التعلية الثانية لخزان أسوان وبدىء العمل فى تنفيذ مشروع جبل الأولياء الذى كان الهدف منه زيادة كمية المياه التى تصل إلى مصر، فى حين كان يستهدف من الاجراءات التى اتخذها بصدد صناعات الغزل والسكر السعى إلى تنشيط الانتاج المحلى وحمايته باعتبار ذلك جزءاً من الخطة الموضوعة لتنويع الانتاج وتنشيطه. كما أنقذت القروض الحكومية أكثر من ثلاثين ألف فدان من الضياع – إذ وفر بنك التسليف الذى جرى انشاؤه قروضاً طويلة الأجل لصغار ومتوسطى ملاك الأراضى، وفى الوقت نفسه جرت محاولات لإيجاد محاصيل بديلة للقطن . وأدت كل هذه الاجراءات إلى إنقاذ كل من صغار الملاك والصناعات فى الوقت الذى تم فيه التحكم فى التصدير والاستيراد ودعم بنك مصر .

ورغم أن حكومة صدقى قد حكمت أطول فترة عرفتها الوزارات في مصر فى العهد الملكى مستندة إلى برلمان ظل قائماً لأطول مدة فى فترة ما بين الحربين فإن نظام صدقى لم يضرب بجذوره بعمق فى أرض صلبة بحيث يتاح لتجربته أن تستمر فى المستقبل، فالبرلمان الذى أوجده هزته الأزمة الاقتصادية العالمية، ورغم مهارته فى الامساك بمقاليد الحكم خلال فترة عصيبة فإن مشروعاته اصطدمت بالمفاهيم الشعبية ومزاج المصريين العاطفى المستند إلى الفردية، فهو لم يتصف بخصال الحكم النيابي التى كان يمكن أن تربط الناس به ، كما لم يؤت (الكاريزما) التى تمس عواطف الجماهير، ونتيجة للأعباء الثقال التى ناء بها كاهله وحده فقد داهمته فى أواخر يناير ١٩٣٣ أزمة صحية أرغمته على التوجه إلى أوربا مما أفسح المجال للقصر لكى يصول ويجول فى ادارة البلاد، وحين عاد إلى مصر فى سبتمبر قدم استقالته على أمل أن يفرض شروطه ولكن قبلها الملك . وحينئذ سعى إلى تسخير حزبه (حزب الشعب) فى الضغط على خلفه (عبد الفتاح يحيى)، ولكن هاجمه القصر هجوماً شديداً متعمداً الترويج لسلسة من الفضائح الادارية والمالية مع لجوئه فى نفس الوقت الى الضغط الاداري الذى أدى إلى انفضاض أغلبية أعضاء حزب الشعب عن مؤسسه . وحين اجتمع البرلمان فى ديسمبر لم يكد عدد أنصار صدقى يصل إلى

١٢نائباً مما أدى إلي استقالته من رئاسة الحزب وانضمامه إلي المعارضة البرلمانية . وفي مايو ١٩٣٥ أعيد انتخابه رئيساً لحزب الشعب مما أهله للإنضمام إلي «الجبهة المتحدة» التى تشكلت فى أواخر ذلك العام وضمت كل الأحزاب والقوى السياسية، وكان من نتيجتها اعادة دستور ١٩٢٣ واستئناف المفاوضات مع بريطانيا . وفي الانتخابات التى اجريت فى مايو ١٩٣٦ حصل حزبه على عشرة مقاعد وانضم إلى هيئة المفاوضة مع بريطانيا التى توصلت إلى معاهدة ١٩٣٦ .

ثم تلاشى حزب الشعب فعاد صدقى إلى استقلاليته وأصبح ينشط فى الحياة السياسية المصرية وحيداً - وكلما حَزَب أمر أدلى بدلوه بصراحة فريدة، فكانت له آراء حول وضع مصر فى الصراع العالمى الذى نشب فى عام ١٩٣٩ وفى المناقشات التى دارت خلال أزمة فبراير١٩٤٢ . وحين جرت المحادثات الخاصة بإنشاء الجامعة العربية أبدى تشككه فى جدوى هذه المنظمة الإقليمية المقترحة وصرح بأن من الأفضل بالنسبة إلى مصر أن تكون فى مؤخرة الدول المتقدمة بدلاً من تزعمها لمجموعة من الدول العربية المتخلفة ناقصة الاستقلال . وحين تفاوض مع بريطانيا فى عام١٩٤٦، وهو رئيس للوزارة للمرة الثانية لوح للإنجليز بأنه على استعداد لمساعدتهم بصدد فلسطين التى كان يحبذ تقسيمها ما بين العرب

واليهود، فى مقابل أن تقدم بريطانيا لمصر تنازلات فيما يتعلق بالجلاء، وكان من رأيه أن عدم التوصل إلى حل للمشكلة الفلسطينية كفيل بجعل فلسطين بؤرة لانتشار الشيوعية فى الوقت الذى أبدى فيه إعجابه بارتفاع مستوى حياة الجماعات اليهودية فى فلسطين وبتعليمها، وبالعلماء اليهود الذين كان يود الاستفادة منهم فى تعليم المصريين فى مختلف المجالات وهو مالا يمكن تحقيقه - فى رأيه - طالما بقيت المسألة الفلسطينية دون حل . ولكن توجهات صدقى بهذا الصدد لم تلق آذاناً صاغية لأنه - فى رأى السفير البريطانى فى القاهرة - لم يكن يحس بالنبض العربى خاصة أنه كان شديد الارتباط بالمصالح اليهودية فى مجال الأعمال.

وخلال وزارة صدقى الثانية كاد ينجح فى التوصل إلى معاهدة مع بريطانيا حمل مشروعها (اتفاق صدقى - بيفن) اسمه . فقد تمشى فى اتجاه بريطانيا الخاص بانشاء دفاع مشترك فى الشرق الأوسط لمواجهة التغلغل الروسى ، وقام باعتقال عدد من الشيوعيين المصريين بعد أن واجه اضطرابات تزعمتها اللجنة الوطنية للطلبة والعمال . وفى ٢٥اكتوبر١٩٤٦ جرى التوقيع فى لندن على مشروع المعاهدة بالأحرف الأولى وكان ينص على التزام الانجليز بالجلاء عن القاهرة والاسكندرية ودلتا النيل بحلول آخر مارس ١٩٤٧ وعن باقى مصر بحلول أول سبتمبر١٩٤٩ . وفى مقابل ذلك وافق صدقى

فى حالة العدوان على بلدان مجاورة لمصر على أن يدعو الانجليز إلى العودة إلى قاعدة قناة السويس وأن يتعاون معهم تعاوناً كاملاً وتتشاور الحكومتان - فى حالة تهديد أمن أى من البلدان المجاورة لمصر - للاتفاق حول الاجراءات التى قد تكون لازمة . ولكن لم تبرم المعاهدة بعد أن واجهت بنودها الخاصة بالدفاع المشترك معارضة شديدة فى مصر وكذلك الحال فيما يتعلق بالبروتوكول الخاص بالسودان الذى لم يقبله قطاع واسع من السودانيين الذين كانوا يطالبون بحق تقرير المصير بدلا من قيام القاهرة بالتفاوض بالنيابة عن السودان . وحين أعلن وزير الخارجية البريطاني فشل المفاوضات فى مجلس العموم عبر عن أسفه لاضطرار الحكومة البريطانية للتعامل مع حكومة أقلية . واستقال صدقى الذى ظل حتى وفاته فى عام ١٩٥٠ يتابع أوضاع مصر عن كثب ويدلى بآرائه بصراحة حين يحزب الأمر : فكان ضد دخول حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ دون استعداد، كما حث المصريين قبيل وفاته على التمسك بالدستور .

وهكذا نكون قد عرضنا لشخصية ظلت إلى عهد قريب مجالاً للشك والتجريح فالحملات الضارية التى وجهت إليه خلال توليه رئاسة الوزراء مرتين كان لها أثرها فى الأحكام التى صدرت عنه من جانب الوفديين والأحرار الدستوريين والشيوعيين . الذين ضيق

عليهم توطئة لتنفيذ سياسته الخاصة بأسلوبه الخاص بتحقيق الأمانى الوطنية . ولما كان صدقى لا يؤمن بالحزبية فإنه كثيراً ما واجه الهجوم عليه وحيداً خاصة أنه كان شديد الاعتداد بنفسه مع نظرة علوية إلى الآخرين واتجاهاتهم . واذا كان قد ارتبط بمصالح الرأسمالية المصرية الصاعدة ارتباطه بالرأسمالية الأجنبية التى كان لها ثقلها فى المجالين العالمى والمحلى فان ذلك فى طبيعة الاشياء خلال النصف الأول من القرن العشرين الذى كانت خلاله الحركات الشعبية غير منظمة وتواجه الضغط من كل صوب . فالرأسمالية المصرية الناشئة كانت وقتها تلعب دوراً وطنياً فى مواجهة جمود كبار الملاك وأنانية الرأسمالية الأجنبية المتغلغلة فى الاقتصاد الوطنى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وهو بحكم وضعه الطبقى ونشأته كان لا يتوقع منه أن ينسلخ عن مصالحه وانتماءاته - ونحن لا نميل إلى تقويم الأشخاص وفق قوالب جامدة، بل بحسب الطبيعة البشرية، مع ميلنا إلى التسامح وعدم تحميل الأشخاص مالا يطيقون .

علي ماهـر باشا

١٨٨١ ـ ١٩٦٠



● مناقشة دستورية بين على ماهر رئيس لجنة الدستور والدكتور عبد الرازق السنهورى رئيس مجلس الدولة .

من أبرز ساسة العهد الملكى فى مصر، فخلال فترة تربو على الثلاثين عاما تولى عددا كبيرا من المناصب الهامة وقد أدت دبلوماسيته الناجحة فى مواجهة بعض الأزمات المستعصية إلى أن يخلع عليه لقب «رجل الأزمات» وذلك نتيجة لكونه مفاوضا ناجحا بإمكانه تذليل الصعوبات وحل المشاكل .. وقد تقلب فى مناصب وزارية عدة وتولى رئاسة مجلس الوزراء أربع مرات وشغل منصب رئيس الديوان الملكى فى عهد الملكين فؤاد وفاروق وذلل بعض الصعاب التى أحاطت بتولى فاروق السلطة – ومن مساخر المصادفات أن هذا الرجل الذى أعلن تولى فاروق السلطة فى عام ١٩٣٦ اشرف على تنازله عن العرش فى عام ١٩٥٢ عقب نجاح حركة الضباط الأحرار .

وعلى ماهر هو ابن محمد ماهر باشا الذى كان وكيلا لوزارة الحربية المصرية فى اوائل عهد الخديو عباس الثانى حين نشبت الأزمة التى اثارها الخديو بعد أن انتقد فى أسوان سوء حالة الجيش المصرى تحت الادارة البريطانية وأدت إلى تمسك كرومر بضرورة اعتذار الخديو لسردار الجيش المصرى – هربرت كتشنر – قبل أن يعود إلى القاهرة . وهذا ما حدث بالفعل وكان بمثابة لوى لذراع الخديو الشاب .. وماهر باشا من أصل شركسى ، وهو والد

على وأحمد ماهر اللذين لعبا دورا هاما فى حقل السياسة المصرية خلال النصف الأول من القرن العشرين .

كفاءة فى مجالات متعددة ..

وقد درس على ماهر القانون فى كل من مصر وفرنسا ثم قام بالتدريس فى مدرسة الحقوق التى مالبث أن أصبح مديرا لها وعرف بكفاءته القانونية والإدارية ، وحين تشكل «الوفد المصرى» فى أعقاب الحرب العالمية الأولى انخرط فى نشاطه وانحاز إلى جناحه اليمينى ، ثم ساعد على التقارب بين سعد زغلول وعدلى يكن فى عام ١٩٢٠ وبذلك مهد للمفاوضات التى جرت مع لورد ملنر .

وعلى أثر انشقاق الوفد ما بين زغلوليين وعدليين انضم إلى حزب الأحرار الدستوريين ثم إلى حزب الاتحاد وشغل منصب وزير المعارف العمومية فى وزارة أحمد زيورالتى تولت الحكم فى اعقاب مقتل السردار البريطانى سير لى ستاك واستقالة وزارة سعد زغلول.

وقد أحرز فى وزارة المعارف سمعة باعتباره من دعاة الانضباط ونفذ خططا للأصلاح التعليمى بقدر كبير من التسرع مما أدى إلى كثير من الخلط .. وفى يونية ١٩٢٨ أصبح وزيرا للمالية فى وزارة محمد محمود ثم فشل فشلا ذريعا فى الانتخابات العامة التى أجريت فى عام ١٩٢٩ ثم عين مديرا للبنك الأهلى المصرى .. وفى

وزارة اسماعيل صدقي التي تولت الحكم في عام ١٩٣٠ تولى وزارة المعارف ثم وزارة الحقانية - وأجرى في الوزارة الأخيرة بعض التعيينات التي كانت مثارا للنقد المتواصل .. وحين اثيرت بعض المخالفات الادارية اصطنع دور المدافع عن العدالة مما أدى إلى اختلافه مع صدقي واعادة تشكيل الوزارة واستبعاده - فقد اعتبر موقفه بهذا الصدد من قبيل الانتهازية لا الحرص على الصالح العام مما أدى إلى الاساءة إلى علاقته بالملك فؤاد .. وفي سبتمبر ١٩٣٣ استقالت وزارة صدقي بعد أن لقيت معارضة شديدة في البلاد خاصة أنه ألغى دستور ١٩٢٣ ووضع دستورا جديدا زاد في صلاحيات القصر والف حزبا جديدا انجحه في الانتخابات العامة التي كانت أبعد ما تكون عن النزاهة .. وبعد استقالة وزارة صدقي تولت الحكم وزارة عبد الفتاح يحيي التي كان اعضاؤها ينتمون إلى حزب الاتحاد .. ولم تبق وزارة عبد الفتاح يحيى في الحكم طويلا واستقالت في ٦ نوفمبر ١٩٣٤ لتخلفها وزارة محمد توفيق نسيم التي عطلت دستور ١٩٣٠ وسعت إلى حل البرلمان دون أن تعيد دستور ١٩٢٣ وكان على الملك فؤاد ، حتى يعلن دستورا جديدا ، أن يتعهد بأن يحكم بواسطة وزرائه وعلى مسئوليتهم وفي ١٨ ابريل ١٩٣٥ أعلن الملك فؤاد أنه يفضل اعادة العمل بدستور ١٩٢٣ - وأغلب الظن أنه كان يسعى إلى إعادة الوفد إلى الحكم على أمل أن يواجه الفشل ويحقق حلمه الخاص بفرض نظام اوتوقراطي ..

وفي خلال هذه الفترة القلقة من تاريخ البلاد عرض على علي

ماهر أن يصبح وزيرا مفوضا فى لندن كما عرضت عليه رئاسة الديوان الملكى فضلا عن عدد من الحقائب الوزارية ، ولكنه رفض أن يصبح من ملاحى سفينة توشك على الغرق أو أن يصبح من رجال القصر إلا إذا بارحه الابراشى باشا الذى كان الرئيس الفعلى للديوان الملكى دون أن يتولى المنصب رسميا ، وإزاء المخالفات التى ارتكبها الابراشى اضطر الملك فؤاد إلى أن يستغنى عن خدماته بعد إلحاح الدوائر البريطانية على ذلك .. وفى أول يولية ١٩٣٥ أصبح على ماهر رئيسا للديوان الملكى .. وربما كانت مهارته التآمرية هى السبب الرئيسي لتعيينه في الوقت الذى مال فيه الملك فؤاد إلى التخلص من توفيق نسيم . وبينما هذا يجرى فى مصر هاجمت ايطاليا الحبشة مما أصاب الدوائر المصرية بالرعب بحكم أن ايطاليا كانت لها قوات فى ليبيا وكان من شأن استيلائها على الحبشة أن تهدد مصر من ناحيتى الجنوب والغرب، ولهذا اتجه جميع المعارضين للأوضاع القائمة فى مصر إلى الانضمام إلى المطالبين بعودة دستور ١٩٢٣ وبدء المفاوضات مع بريطانيا حول معاهدة توفر لمصر الضمانات الكافية لمواجهة الاخطار التى قد تحيق بها . وازاء ذلك سحبت بريطانيا تأييدها لنسيم الذى استقال فى ٢٢ يناير ١٩٣٦ ، ثم تألفت وزارة على ماهر الانتقالية التى سعت إلى التمهيد لاجراء انتخابات جديدة .. وقد بادر على ماهر إلى استصدار مرسوم ملكى بتشكيل هيئة

المفاوضات بعد أن مهد لاجراء انتخابات كان من المتوقع أن تسفر عن تولى الوفديين الحكم ، وفى ٢٨ ابريل توفى الملك فؤاد قبل أيام من بدء الانتخابات التى اسفرت عن انتصار ساحق لحزب الوفد ، وبعد استقالة على ماهر كلف النحاس باشا بتشكيل الوزارة التى جاءت وفدية خالصة ، وكان أول ما واجه على ماهر مسألة المناداة بالأمير فاروق ملكا على مصر وكان فى بريطانيا حيث أرسله والده منذ أشهر قليلة لتلقى تعليمه - فبادر إلى إعلان وفاة الملك فؤاد وتولى ابنه الحكم :

فهو لم ينس أنه كان موضع ثقة الملك فؤاد ورعايته خلال سنوات طويلة وأن واجبه يقتضيه أن يبدى الولاء لراعيه الراحل ولابنه الذى لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد وبالتالى فإنه اهتم بحل المشاكل المترتبة على ذلك ، فاستعان بلجنة قضايا الحكومة وبرجال الشريعة الاسلامية من علماء الأزهر ومفتى الديار المصرية .. وقد تمخضت المساعى عن إعلان بلوغ الملك سن الرشد بعد أن اعتبرت السنوات الهلالية الثمانى عشرة كافية للأهلية السياسية (وكان الأمر الملكى الصادر فى٣١ أبريل ١٩٢٢ قد نص على ذلك) . وفى خلال المائة يوم التى تولى خلالها على ماهر الحكم اجرى كثيرا من الإصلاحات الادارية التى ما لبثت أن الغيت أو اجلت حين انتقلت المسئولية السياسية إلى الوفديين . ويبدو أن نشاطاته قد ارتبطت بالأمل الذى راوده فى أن تمكنه الاحداث من الاحتفاظ بمنصبه لاطول فترة ممكنة ..

وفى أكتوبر ١٩٣٧ عهد الملك إلى على ماهر برئاسة الديوان الملكى ضاربا صفحا برأى النحاس باشا وكان على ماهر ناصحا امينا للملك الشاب واشترك مع مجموعة من المستشارين فى توجيهه إلى كيفية كسب ثقة جماهير المصريين الذين جذبتهم بساطته وحيويته ومراعاته للمشاعر الدينية - وفى وقت قصير نجح فاروق ومستشاروه فى موازنة الشعبية التى حصل عليها حزب الوفد إن لم يفقها - وفى٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ أقال الملك الوزارة الوفدية وحل مجلس النواب ، ثم شكل محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين حكومة جديدة أجرت انتخابات تمخضت عن هزيمة ساحقة للوفد ، وهكذا كانت ستة اشهر من حكم فاروق كفيلة بإلحاق الهزيمة بحزب لم يستطع والده طيلة حكمه أن يقهره ، وفى ١٢ اغسطس ١٩٣٩ استقال محمد محمود وعهد فاروق إلى على ماهر بتشكيل وزارة جديدة .. وبعد عدة أيام غزت المانيا بولنده وفى ٢ سبتمبر اعلنت بريطانيا وفرنسا حالة الحرب ضد إلمانيا وواصل الملك سياسة ابقاء الوفد خارج الحكم بالاتفاق مع السفارة البريطانية واتبع هو وعلى ماهر سياسة حذرة شجعهم عليها موقف الحياد الذى اتخذته ايطاليا فى البداية ، ورغم قطع مصر علاقاتها الدبلوماسية مع المانيا فقد جرى تعيين الفريق عزيز المصرى رئيسا عاما لاركان حرب الجيش المصرى ، وكان وطنيا متطرفا كما اصبح صالح حرب باشا وزيرا للحربية - وطبقا لما ذكرته المصادر

البريطانية فيما بعد أخذ صالح حرب يقيم العراقيل فى وجه التعاون العسكرى بين مصر وبريطانيا .. وفى أول سبتمبر انشىء جيش مرابط وضع تحت قيادة وزير الأوقاف عبد الرحمن عزام باشا - وكان هذا الجيش محط آمال علي ماهر وموضع عنايته ، وقد عمل قائده بهمة على أن يبث فى جنوده الحمية الوطنية التى كانت تحركه منذ أن حارب الايطاليين فى ليبيا هو وعزيز المصرى وصالح حرب .. وقد روى الجنرال ولسون ، قائد القوات البريطانية فى مصر ، أن عزيز المصرى أشاد بالعسكرية الألمانية أمام الضباط المصريين وقلل من شأن القوات البريطانية ، فى الوقت الذى لم يستمر فيه التعاون بين البعثة العسكرية البريطانية وبين القيادة المصرية بصورة مرضية مما أدى إلى نشوب كثير من المصادمات.

وما لبثت المانيا أن أحرزت انتصارات مدوية على الحلفاء مما جعل الاوساط البرلمانية فى مصر تنادى باتباع سياسة حيادية واستغلال مصاعب بريطانيا ، لتعديل معاهدة ١٩٣٦ وأوضاع الأجانب وترتبت على ذلك يقظة الروح الوطنية المصرية التى قوتها دعايات المحور وشجعتها كل من الحكومة المصرية والسراى مما أدى إلى ازدياد قلق السفارة البريطانية وضغطها على على ماهر واضطراره إلى منح عزيز المصرى اجازة طويلة ثم احالته إلى الاستيداع . وظلت العلاقات متوترة بين على ماهر الذى حظى

بمساندة السراى وبين السلطات البريطانية – ثم انفجرت الازمة فى يونية ١٩٤٠ حين دخلت ايطاليا الحرب : فقد اكتفى على ماهر بأن يطرح للتصويت أمام البرلمان موضوع قطع العلاقات مع ايطاليا وقرر البرلمان – بناء على اقتراح على ماهر – أن مصر لن تشارك فى الحرب إلا إذا بادرت ايطاليا بغزو الأراضى المصرية أو إذا دمرت المدن المصرية نتيجة للقصف الجوى أو إذا اغارت على أهداف عسكرية مصرية . وقد فسرت الدوائر البريطانية سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب» التى اتبعها على ماهر بأنها انحياز إلى جانب ايطاليا والمانيا – بل إن تعاطفه مع المحور الذى قيل إن كل حاشية الملك كانت تشاركه فيه كان موضعا لهمسات ملحة فى دوائر الحلفاء فى الوقت الذى تمكنت فيه الدبلوماسية الفاشية من أن تكسب إلى جانبها ليس فقط على ماهر بل والملك نفسه وكانت غالبية الشعب المصرى تشاطره الرأى وكذلك الحال بالنسبة إلى كل الأحزاب باستثناء الهيئة السعدية .

وهكذا قاومت حكومة علي ماهر ، تؤيدها السراى والرأي العام ، كل ضغوط السفارة البريطانية وتلقت القوات المصرية المرابطة فى الغرب الأوامر بعدم اطلاق النار على الجنود الايطاليين .. وطلبت السفارة البريطانية إلغاء هذا الأمر الذى أصبح مثارا لخلاف سرعان ما ازدادت خطورته فى الوقت الذى كان فيه على ماهر يريد اعلان القاهرة مدينة مفتوحة وخالية من القوات البريطانية . وقد

أدى كل ذلك إلى ازدياد الضغوط البريطانية وتوتر العلاقات بين الوزارة والسفارة البريطانية إلى حد خطير .. وفى ٢٩ يولية ١٩٤٠ فضل على ماهر الاستقالة على أن يرضخ للنصائح المستمرة التى كان يدلى بها السفير البريطانى وما لبث أن حددت اقامته مما اكسبه هالة من الاحترام من جانب قطاعات واسعة من المصريين .

وظل على ماهر يرقب السياسة المحلية عن كثب إلى أن احتدمت الحركة الوطنية من جديد فى اعقاب الحرب العالمية الثانية وتجاوب معها حزب الوفد ، فالغى معاهدة ١٩٣٦ وشجع المقاومة الشعبية المسلحة للانجليز الذين ردوا على ذلك ردا عنيفا وصل مداه فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ حين هاجموا الشرطة المصرية الموجودة فى الاسماعيلية وقتلوا عددا كبيرا من افرادها مما اثار بلوكات النظام فى القاهرة الذين أزمعوا الانضمام إلى طلبة جامعة القاهرة للقيام بمظاهرة مشتركة فى الوقت الذى انفجر فيه العنف فى شوارع العاصمة بالشكل الذى تمخض عن حريق القاهرة . وانتهز الملك الفرصة فاقال النحاس بعد أن أعلن الأحكام العرفية وكلف على ماهر - رجل الازمات - بتشكيل وزارة جديدة سعت إلى تهدئة الموقف واستئناف المفاوضات مع الانجليز . ولم تظل وزارة على ماهر الثالثة فى الحكم طويلا وتلتها وزارات لم تستطع مواجهة الأوضاع المتردية فى البلاد فى الوقت الذى تدهورت فيه سمعة

الملك فاروق وفقد العطف الذى أحاطه به الشعب في اوائل عهده كما فقد ولاء الجيش نتيجة لبعض تصرفاته وتحميله مسئولية الزج بالقوات المسلحة في حرب فلسطين دون استعداد مما أدى إلى الهزيمة التى عزيت إلي تسليح الجيش بأسلحة فاسدة قيل إن الملك وحاشيته هم الذين باعوها .

وبعد نجاح حركة الضباط الأحرار فى ٢٣ يولية ١٩٥٢ عهد مجلس قيادة الثورة إلى على ماهر بتشكيل آخر وزاراته التى كان أهم ما قامت به اقناع الملك فاروق بالتنازل عن العرش - وهكذا فكما سهل عملية انتقال السلطة إليه فى عام ١٩٣٦ فإنه لعب دوره في التمهيد لاسدال الستار على النظام الملكى الذى كان هو من اخلص خدامه ، وما لبث على ماهر أن اصطدم بالعهد الجديد حين ابدى معارضته لقانون الاصلاح الزراعى الذى تبناه الضباط الأحرار مفضلا عليه فرض الضرائب التصاعدية ، فترك السلطة غير آسف عليها رغم ولعه بها وبقى فى الظل إلى أن وافته المنية .

محمود فهمى النقراشى

(١٨٨٨ - ١٩٤٨)



● محمود فهمي النقراشي

في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة من صباح الثلاثاء ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ دوت في أرجاء وزارة الداخلية أصوات مقذوفات نارية متتابعة . فلما هرول كبار موظفيها مذعورين لاستطلاع النبأ ساقتهم أصوات الرصاص المدوى إلى مصدر انطلاقه ، وقد عرفوا أنه عند باب مصعد الوزارة راعهم أن يروا صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء . ووزير الداخلية والمالية ، ملقى على الأرض ، إلى جوار المصعد ، مضرجا في دمائه .

«إن المقذوفات التى سمع دويها كانت مسددة إلى وزير الداخلية، وقد أصابت الرصاصتان الأوليان منهما مقتلا فيه ، إذ نفذتا إلى القلب مباشرة ، فخر النقراشى باشا صريعا فاقد النطق لم تنبعث منه غير آهة واحدة ، رقد بعدها جثة هامدة ، بين بكاء الذين أسرعوا إلى المكان ، ولم يتمالكوا عيونهم أن تدمع ، ونفوسهم أن تجزع أسى على هذه المفاجأة التى راح ضحيتها رئيس وزراء مصر » .

كان هذا هو البيان الذى صدر عقب اغتيال النقراشى باشا الذى ولد بالاسكندرية فى ٢٦ أبريل سنة ١٨٨٨ أى منذ أكثر من مائة سنة .

والنقراشى من الساسة الذين أبرزتهم ثورة ١٩١٩ : فقد اشتركت فى هذه الثورة جميع فئات الشعب وطبقاته بعد أن عمت مصر جميعها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وتميزت بالتصدى للمحتل سواء بالمظاهرات أو بالعنف أو بالإضراب عن العمل ، وبلغ مجموع خسائر المصريين خلال الثورة حوالى ثلاثة آلاف قتيل و ١٦٠٠ جريح ، كما حكم على ٣٧٠٠ بأحكام مختلفة وأعدم ٤٩ وحكم بالأشغال الشاقة على ٢٧ ، وحدث كبير مثل هذا كان لابد من أن يفرز زعامات من شتى المستويات التى انخرطت فى العمل الوطنى ، والنقراشى أحد هؤلاء وكان مجال نشاطه هو تنظيم الإضرابات وأعمال الاغتيال السياسى ، وهذه الأخيرة لم تثبت عليه برغم تأكد السلطات الانجليزية منها . وقد ولد النقراشى حوالى عام ١٨٩٠ فى أسرة اسكندرانية تنتمى إلى الطبقة الوسطى الدنيا ، وقد عمل في شبابه بالتدريس بعض الوقت فى مدرسة التجارة حيث توثقت صلاته بأحمد ماهر صديق عمره وشريكه في تهمة الاغتيالات السياسية أثناء ثورة ١٩١٩ التى قام اثناءها بالتحريض على اضراب موظفى الحكومة مما جعله يحتل مكانة مرموقة في صفوف «الوفد» . وفى عام ١٩٢٢ كان المحرض الرئيسى على إضراب الطلبة وجرى استجوابه للاشتباه فى اشتراكه فى عملية اغتيال . ثم اعتقل فى مايو ١٩٢٣ ولكن أخلى

سبيله لعدم توفر الأدلة . وحين تولى سعد زغلول رئاسة وزارة الشعب عينه وكيلا لمحافظ القاهرة ، ثم وكيلا لوزارة الداخلية التى جعل منها بؤرة للتآمر وأصدر أوامر مشددة للمديرين وكبار الموظفين وآثار العراقيل فى أوجه الموظفين الانجليز ، وفى نوفمبر ١٩٢٤ نهب الطلبة وجماهير القاهرة مكاتب مجلة «الكشكول» الأسبوعية المعارضة وأحرقوها ، كما نهبوا مكاتب جريدة «الأخبار» لسان حال الحزب الوطنى ، وفيما يتعلق بهذه الأحداث أصدر النقراشى أمرا لمحافظ القاهرة البريطانى لكى يحول دون تدخل البوليس . وبعد مقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان لم يكف النقراشى عن التدخل فى اجراءات التحقيق مما جعل الموظفين البريطانيين يتنصلون من مسئولية أى تطورات قد تحدث فى المستقبل ، وفى ٢٧ نوفمبر جرى اعتقاله للاشتباه فى صلته بمقتل السردار ولكن أفرج عنه فى يناير ١٩٢٥ لعدم كفاية الأدلة ولو أنه قبض عليه من جديد فى مايو ١٩٢٥ بتهمة الاشتراك فى الاغتيالات السياسية ثم أفرج عنه فى مايو ١٩٢٦ .

ذكاء وكفاءة

وبمضى الزمن ازداد نفوذ النقراشى فى حزب الوفد فأصبح أمينا لصندوقه ومسئولا عن تنظيمات الطلبة وغيرها – وبعد وفاة سعد زغلول فى عام ١٩٢٧ لعب دورا هاما فى خلع رئاسة

الحزب على مصطفى النحاس الذى كان ينافسه فتح الله بركات قريب سعد ولو أن النقراشي نقم على مكرم عبيد الذى تولى السكرتارية العامة للحزب التى كان النقراشي يطمح إلى شغلها ، وفى ديسمبر ١٩٢٩ فاز في الانتخابات لمجلس النواب بالتزكية وهذا راجع إلى ما عرف عنه من الذكاء والكفاءة والجرأة وفى أوائل عام ١٩٢٩ تولى وزارة المواصلات فى وزارة النحاس الثانية التى ظلت فى الحكم حتى ١٩ يونيه ١٩٣٠ وسقطت بعد فشلها فى تحقيق مطالب مصر الوطنية واصطدامها بصخرة السودان .. وقد اتصف النقراشي فى هذه الفترة بالكفاءة الادارية وبالتشدد فى المجال السياسى وفي عام ١٩٣٦ تولى مرة أخرى منصب وزير المواصلات في وزارة النحاس الثالثة واشترك فى الجبهة الوطنية التى وقعت معاهدة ١٩٣٦ مع الانجليز ، وفى عام ١٩٣٧ انشق هو وأحمد ماهر وآخرون عن حزب الوفد وألفوا الحزب السعدى الذى أصبح من أحزاب الأقلية التى يساندها القصر بعد أن لعب دوره فى توسيع شقة الخلاف بين ماهر والنقراشي وأنصارهما وبين النحاس ومكرم عبيد .. وقنع النقراشي فى الحزب السعدى الذى تولى رئاسته أحمد ماهر بدور الرجل الثانى .

وقد قتل أحمد ماهر فى أواخر الحرب العالمية الثانية نتيجة لسعيه إلى اشراك مصر فى الحرب حتى تحتل مكانتها بين

المنتصرين ، وكان ماهر منذ نشوب الحرب يجاهر بضرورة انضمام مصر إلى «الحلفاء» حتى يشترك الجيش فى القتال ويلقى التدريب اللازم ويحصل على السلاح وتتعزز مطالبة مصر بجلاء القوات البريطانية عن أراضيها ثمنا لاشتراكها فى الحرب ، وقد عد البعض ما ذهب إليه ماهر خيانة لقضية البلاد وبالتالى فإنه دفع حياته ثمنا لآرائه وخلفه النقراشى الذى تولى المسئولية فى فترة حرجة من تاريخ البلاد التى كانت تموج بالمطالبة بجلاء الانجليز بحيث نشطت المظاهرات التى أدت إحداها إلى حادثة كوبرى عباس الذى فتحه البوليس أثناء سير المتظاهرين من الطلبة عليه مما أدى إلى سقوط بعض القتلى والجرحى ، وقد بذل النقراشى كل ما فى وسعه لإعادة الأمن والنظام خاصة أن طلبة جامعة القاهرة لم يستقبلوا الملك حين توجه لافتتاح المدينة الجامعية ، بل وداسوا على صورته ومزقوها وذلك كنوع من الاحتجاج على بطش البوليس وإيداع كثير من الطلبة فى السجون لهذا لم تدم فترة وزارة النقراشى الأولى طويلا برغم مساندة الملك له ثم تولى اسماعيل صدقى الحكم واستأنف المفاوضات التى بدأها النقراشى مع الإنجليز وأمكنه الحصول على وعد بالجلاء مع تنسيق الإجراءات الدفاعية المشتركة التى تتخذها حكومتا البلدين فى حالة الطوارىء . وقد عرف هذا الاتفاق باسم مشروع صدقى ، بيفن اللذين وقعا عليه بالأحرف الأولى ، إلا أن الاتفاق تحطم على صخرة السودان

الذى أصرت بعض قواه السياسية على طلب حق تقرير المصير والاستقلال عن كل من مصر وبريطانيا . وكانت النتيجة هى استقالة وزارة صدقى التى وصفها وزير الخارجية البريطانى بأنها « حكومة أقلية » ... وفى ديسمبر ١٩٤٦ عاد النقراشى إلى السلطة من جديد وأعلن أنه سيقدم القضية المصرية إلى مجلس الأمن الذى كان قد اتخذ قرارا بإجلاء القوات الفرنسية عن سوريا ولبنان .

وفى المذكرة التى قدمها النقراشى إلى مجلس الأمن فى ١١ يوليو ١٩٤٧ طالب بالجلاء الناجز التام لكل القوات البريطانية عن مصر بما فيها السودان ، واشتدت المذكرة فى التنديد بالسياسة البريطانية ، فذكرت أن القــوات البريطانية لاتزال تعســـكر على الأراضى المصرية ضد إرادة الشعب بأجمعه وأن وجود قوات أجنبية على أراضى دولة عضو فى الأمم المتحدة فى وقت السلم وبدون موافقتها الحرة أمر يمس كرامتها ويشكل عقبة في سبيل تطورها الطبيعى ويعد اعتداء على القواعد الأساسية للمساواة فى السيادة ولميثاق الأمم المتحدة . ولمحت المذكرة إلى أن الحكومة المصرية حاولت بحسن نية أن تصل إلى تسوية عادلة لنزاعها مع إنجلترا عن طريق المفاوضات المباشرة برغم أن وجود القوات الأجنبية فى حد ذاته لايتمشى مع حرية المفاوضات ومضت المذكرة إلى القول بأن الحكومة البريطانية كانت – منذ أن فشلت

المفاوضات - تحاول الاستفادة من معاهدة ١٩٣٦ التي « استنفدت أغراضها » فضلا عن أنها لاتتمشى مع ميثاق الأمم المتحدة . واتهمت المذكرة بريطانيا باحتلالها لمصر فى عام ١٨٨٢ وفرضها لنفسها شريكا لمصر فى ادارة السودان منذ عام ١٨٩٩ وما استتبعه ذلك من تمتعها فى السودان بسلطة مطلقة وسيرها علي سياسة تستهدف فصل السودان عن مصر والتحريض علي قيام حركات انفصالية مصطنعة . وقد أعلن النقراشى فى مجلس الأمن أن النزاع بين مصر وبريطانيا يشكل خطرا يهدد السلام والأمن وأن الاحتلال البريطانى يخلق احتكاكا دائما ، كما طالب بوجوب إنهاء النظام الإدارى القائم فى السودان ، وفيما يتعلق بمعاهدة ١٩٣٦ أوضح أنها استنفدت أغراضها على اعتبار انها حين وقعت كانت بمثابة إجراء مؤقت يهدف إلى مواجهة أزمة دولية .

وردا علي الحجج التى عرضها النقراشى بنى مندوب بريطانيا فى الأمم المتحدة سير الكسندر كادوجان اجابته على قاعدة القانون الدولى الذى تبقى معاهدة ١٩٣٦ طبقا له سارية المفعول حتى عام ١٩٥٦ الا اذا اتفق الطرفان على شىء آخر ، وفيما يتعلق بوجود القوات البريطانية على الأراضى المصرية ومسألة السودان أعاد كادوجان إلى الأذهان مفاوضات صدقى - بيفن التى اشتركت فيها بريطانيا بمحض اختيارها رغم أنها لم تكن مرغمة على ذلك

حتى عام ١٩٥٦ . وذكر أن السبب الوحيد لرفض المصريين لها هو الفقرة الواردة فى بروتوكول السودان التى كانت تهدف إلى تأكيد تمتع السودانيين فى الوقت المناسب بحقهم فى اختيار وضع بلادهم فى المستقبل ، وذهب إلى أن المصريين أرادوا قصر اختيار السودانيين على نوع ما من الارتباط بمصر فى حين أن بريطانيا أرادت أن تمنح السودانيين مطلق الحرية فى الاختيار ولم تكن مصر مستعدة لأن تعطى السودان تلك الحرية فى اختيار الاستقلال التام وهى الحرية التى كانت مصر تنادى بشدة بأن تكون حقا للبلدان الأخرى وحصلت هى نفسها عليها من بريطانيا . واشتد كادوجان فى انكار اتهام المصريين لبريطانيا بإيجاد خصومة بين المصريين والسودانيين ولم يصل مجلس الأمن إلى قرار حول شكوى مصر ضد بريطانيا التى بنت وجود قواتها فى مصر على معاعدة ١٩٣٦، فعلى حين أن أمانى مصر الخاصة بالجلاء قد حظيت بعطف الأمم المتحدة إلا أن أعضاء مجلس الأمن أجمعوا على حق السودانيين فى اختيار وضع بلادهم فى المستقبل . وكان فشل النقراشى فى الأمم المتحـدة راجعا إلى ربطه بين وجـود القـوات البريطانية فى مصر و مبدأ وحدة وادى النيل الذى لم يحظ بالتأييد ، وإزاء ذلك كله قرر رئيس مجلس الأمن الاحتفاظ بالنزاع فى جدول أعمال المجلس.

ويبدو أن الملك فاروق الذى كان له تأثيره فى نشاطات وزارة النقراشى كان يسعى إلى إطالة أمد الائتلاف الحكومى القائم خشية أن يعود الوفد إلى الحكم ويسعى إلى الانتقام لنفسه من مسلسل الإقالات التى منيت بها حكوماته السابقة ، وكان فشل شكوى مصر فى مجلس الأمن بمثابة نكسة للنظام القائم الذى أخذ يواجه سلسلة من المشكلات منها إضراب ضباط البوليس والسخط العام نتيجة للغلاء الذى استشرى نتيجة للحرب العالمية الثانية وسوء توزيع ثروات البلاد وظهور قوى سياسية جديدة أبرزها جماعة الإخوان المسلمين . لهذا كله سعي الملك إلى تحويل الأنظار عن كل ذلك إلى مجالات أخرى خارج البلاد خاصة أن بريطانيا قررت إنهاء انتدابها على فلسطين وأن الأمم المتحدة أوصت بتقسيم فلسطين إلى دولتين احداهما عربية والأخرى يهودية مع تدويل القدس . وكان بعض المقربين من الملك قد زينوا له السعى إلى إحراز زعامة البلدان العربية بنصر سريع على « العصابات الصهيونية » ورغم ما أعلنه النقراشى من أنه لن يرسل الجيش المصرى إلى داخل فلسطين فقد صدرت الأوامر إلى القوات المصرية بدخول الأراضى الفلسطينية فى ١٥ مايو ١٩٤٨ دون أى استعدادات مسبقة ودون أى تنسيق مع القوات العربية الأخرى مما أدى إلى هزيمة العرب وظهور الدولة الصهيونية إلى حيز الوجود .

وقد اشترك بعض متطوعى جماعة الإخوان المسلمين فى الحرب ثم عادوا إلى مصر بعد أن تدربوا على القتال واستعمال السلاح فى الوقت الذى كدست فيه الجماعة السلاح بحجة الدفاع عن فلسطين .. وما انتهت الحرب حتى سعى الإخوان المسلمين إلى الاستيلاء على السلطة فقاموا بكثير من حوادث النسف والاغتيال مما أدى إلى اختلال الأمن ، فقرر النقراشى حل الجماعة خاصة أن الملك فاروق رأى فيهم مصدر خطر على حياته هو وردا على ذلك قام أحد شباب الإخوان باغتيال النقراشى .. وبذلك طويت صفحة أحد الساسة المصريين البارزين فى العهد الملكى .

د. أحمد ماهر

١٨٨٨ - ١٩٤٥



● أحمد ماهر فى إحدى الندوات ويظهر فى الصورة الكاتب عباس محمود العقاد أحد رواد الثقافة فى مصر

هو أبرز ساسة مصر فى فترة ما بين الحربين وزعيم الحزب السعدى الذى كان أحد الأحزاب التى انشقت عن الوفد بسبب عدم مرونة زعامته وتشددها وعدم قبولها بالنقد والمعارضة فلما كان حزب الوفد حين تأسس لا يعتبر نفسه حزباً بل تجسيداً لارادة الأمة بل الامة نفسها تضع مصيرها وقدرها بين يدى قائد - زعيم تسير كلها وراءه فانه لم ين عن المطالبة بالاستقلال وبتقييد السلطة الملكية المطلقة مستنداً في تحقيق أهدافه إلى حماسة الجماهير الا أن أعضاءه كانوا ينتمون إلى الطبقات بالغة التفاوت : فمنهم كبار ملاك الأراضى الزراعية ومنهم البورجوازية الصغيرة والكبيرة والفلاحون والحرفيون والعمال والطلبة ومن ثم كان الحزب عرضة للتصدع : فكثيراً ما كانت الاستقالات الصادرة عن بعض قادته تهز دعائم تنظيماته الداخلية ، وهى استقالات ترجع إما إلى أسباب سياسية أو إلى منافسات شخصية وبالتالى حدثت الانشقاقات فى صفوفه وادت إلى ظهور أحزاب جديدة تزايدت أعدادها بمرور الزمن ، وهى أحزاب ليست لها برامج واضحة بل أن قوتها أو ضعفها كانا مرتبطين بطبيعة زعاماتها ، ولكن هذا يقتضى اعتمادها على القصر أو على الإنجليز ..

وأحمد ماهر مؤسس حزب السعديين ينتمى إلى الشريحة الاجتماعية الشركسية التى جعل محمد على منها ومن الاتراك ركيزة لحكمه وأوسع لها فى الأملاك والمناصب ، ومن ثم فقد نعمت بالثروة وتبوأت أرفع المناصب قبل أن «تتمصر» وتذوب فى المجتمع المصرى الكبير . ووالده هو محمد ماهر باشا الذى كان وكيلاً لوزارة الحربية فى عام ١٨٩٤ حين اثار الخديو عباس الثانى أزمته المشهورة مع سردار (قائد) الجيش المصرى هربرت كتشنر حين وجه انتقاده إلى الضباط الانجليز وندد بسوء أوضاع الجيش مما جعل اللورد كرومر - حاكم مصر الفعلى فى ظل الاحتلال البريطانى - يقف موقفاً صلباً ويرغم الخديو على التراجع والخضوع . وقد خلف محمد ماهر باشا ابنا آخر - هو على - قيض له هو الآخر أن يلعب دوراً هاماً فى السياسة المصرية حتى أوائل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وقد تخرج أحمد ماهر فى مدرسة الحقوق الخديوية فى عام ١٩٠٨ واشتغل بعض الوقت بالمحاماة فى القاهرة وفى عام ١٩١٠ توجه إلى مونبلييه فى فرنسا حيث حصل بعد ثلاث سنوات على درجة الدكتوراه فى القانون والاقتصاد . وفيما بين عامى ١٩١٣ و ١٩٢١ عمل بالتدريس والتقى خلاله بصديق عمره محمود فهمى النقراشى . ولم تكن الدوائر البريطانية تشك كثيرا فى اشتراكه فى الاغتيالات السياسية ، وفى عام ١٩٢٢ قبض عليه بعد مقتل حسن

عبدالرازق وزهدى ، وإن لم يقم على تورط ماهر دليل ملموس .. وقد فاز أحمد ماهر فى الانتخابات التى أجريت بعد صدور دستور ١٩٢٣. وعين وزيراً للمعارف في أكتوبر ١٩٢٤ بعد عودة سعد زغلول - رئيس الوزراء حينئذ - من لندن على أثر مفاوضاته مع رمزى مكدونالد ، ولو أن الوزارة استقالت فى أواخر عام ١٩٢٤ على أثر مقتل السردار السير لي ستاك . وكان شفيق منصور الذى شنق بتهمة الاشتراك فى اغتيال السردار في مكتب أحمد ماهر القريب من مسرح الجريمة حين جرى ارتكابها ولهذا قبض على أحمد ماهر في ١٩٢٥ وجرت محاكمته هو وآخرون وقد رأس الهيئة القضائية التى نظرت فى القضية قاض انجليزى (كيرشو) ومعه قاضيان مصريان . إلا أن تبرئة المتهمين أدت إلى استقالة كيرشو ، أما ماهر فقد حصل على مقعد فى مجلس النواب وأصبح رئيساً للجنة البرلمانية الخاصة بالحسابات وعضوا فى لجان الميزانية والتعليم والدستور . وفي عام ١٩٢٧ مثل مصر فى المؤتمر البرلمانى الدولى الذى انعقد فى ريو وما لبث أن عجل بالعودة إلى القاهرة حين ترامت إلى مسامعه أنباء وفاة الزعيم سعد زغلول ثم عين رئيساً لتحرير جريدة البلاغ وانتخب فى ديسمبر ١٩١٩عضوا بمجلس النواب وفى العالم التالى صحب الوفد المسافر إلى لندن للتفاوض حول معاهدة مصرية - بريطانية وذلك باعتباره خبيراً مالياً .

وعند هذا الحد كان أحمد ماهر قد تمرس بالاجراءات البرلمانية وبرز باعتباره برلمانياً لا يشق له غبار بحيث أحكم سيطرته على مجلس النواب ، وقد لوحظ أنه قليل الكلام في البرلمان ولو أنه كان لا ينفك عن الهمس إلى اصدقائه وحثهم على عمل ما يجب عمله ، ومن ثم فقد وصفه سعد زغلول بأنه «الببغاء الصامت» وفى مايو ١٩٣٤ أصبح رئيساً لتحرير «كوكب الشرق» وحينئذ كان قد ازداد توثق علاقاته بمحمود فهمى النقراشي بحيث برزا باعتبارهما قطبى الاتجاه الواقعى في دوائر الوفد الداخلية . وفى مايو ١٩٣٦ أصبح رئيساً لمجلس النواب ثم عضواً فى الوفد المصرى الذى أجرى مفاوضات معاهدة ١٩٣٦ مع الإنجليز .

ورغم موافقة أحمد ماهر على المعاهدة فقد كان من رأيه أنها لم تحقق «الشرف والاستقلال» وفق ما ذهب إليه مصطفى النحاس ومكرم عبيد ، بل لم تعد كونها خطوة صوب الاستقلال ومع ذلك فإنه لم يستطع فرض رأيه على دوائر حزب الوفد الذى كان أحد اقطابه، ولكنه نصح النحاس بأن يعتبر توقيع المعاهدة خاتمة عهد وفاتحة عهد آخر تندمج فيه الاحزاب كلها فى حزب واحد بصورة تشبه ما تحقق في عام ١٩١٩ ولكن النحاس لم يوافق على هذا الاقتراح لشدة اعتقاده بأنه يمثل الأمة ولأنه بعد تجربته فى الحكم رئيساً لمجلس الوزراء كان لا يميل إلى الحكومات الائتلافية أو إلى

التعاون مع الأحزاب الأخرى ، وحين أعاد النحاس تشكيل وزارته في عام ١٩٣٧ استبعد منها النقراشى ومحمود غالب بسبب موقفهما من مسألة استنباط الكهرباء من مساقط المياه بخزان أسوان . وكان سبب الخلاف هو أن شركة انجليزية عرضت أن تنفذ المشروع على أن يتم الأمر بينها وبين الحكومة مساومة ومن غير مناقصة . وقد آثار زعيم المعارضة - محمد محمود - هذه المسألة فى مجلس النواب وطالب بطرح أمر الاستنباط في مناقصة عالمية تتقدم فيها الشركات العالمية الكبرى بعطاءاتها بحيث يسند العمل إلى أكثرها خبرة وأمتنها مالية . وانحاز النقراشى وغالب لرأى محمد محمود إلا أن مكرم عبيد - الرجل الثانى في الوفد - دافع عن وجهة نظر الحكومة التى أخذت باتجاه الشركة الانجليزية ، وتابع مكرم سائر الوزراء بالاتفاق مساومة مع الشركة بحجة أن لديها سراً فنياً لا يمكن افشاؤه وأنه يسمح للحكومة بالتجاوز عن المناقصة إلى الممارسة . وادى خروج النقراشى وغالب من الوزارة إلى ازدياد الخصومات خاصة وقد أشيع أن أحمد ماهر يؤيدهما وأنه مرشح لرئاسة الوزارة فيما لو أيده مجلس النواب .

وحاول أحمد ماهر اقناع النحاس بالعدول عن رأيه مما أدى إلى توتر العلاقات بينهما . واجتمعت الهيئة الوفدية لتسوية هذا الخلاف الذى كان ينذر بانقسام الوفد . وانسحب أحمد ماهر من

الاجتماع ولم يتبعه من الحاضرين سوى ثلاثة أعضاء - وعلى باب النادى السعدى استقبلته مظاهرة صاخبة هتفت بسقوطه وبحياة النحاس . وكان هذا الانشقاق بالغ الاهمية وأدى - كما أدت الانشقاقات السابقة والتالية التى حدثت فى تاريخ الوفد إلى نشأة حزب جديد اتخذ لنفسه اسم «الهيئة السعدية» وأدى ذلك إلى تحطيم وحدة الوفد وإلى تشجيع القصر على أن يقاوم سياسة التخويف التى كان النحاس يتبعها ازاءه ، بحيث لم يجد صعوبة كبيرة فى اقالة وزارة الوفد ، التى خلفتها وزارة محمد محمود التى حلت مجلس النواب وأجرت انتخابات جديدة اسفرت عن خروج الكثيرين من الوفد وانضمامهم إلى أحمد ماهر الذى حصل حزبه الجديد على عدد كبير من كراسى البرلمان .

وحين تم تعديل الوزارة دخلها ماهر والنقراشى وسعديان آخران ولو أن ماهر وانصاره رفضوا اقتراحاً باندماجهم مع الدستوريين تحت رئاسة محمد محمود لأنهم كانوا يؤمنون بأنهم ورثة سعد زغلول وبانهم سينتصرون إذا ما احتفظوا باستقلالهم ، وما لبث شبح الحرب العالمية الثانية أن خيم على الأفق فى أعقاب الاعتداءات التى قامت بها دول المحور (ايطاليا وألمانيا واليابان) وبعد أن اتضح ان أطماع هذه الدول لا تقف عند حد . وقد انقسم المصريون حول الموقف الواجب اتخاذه من هـذه الأزمة العالمية :

فقد كان الكثيرون - ومنهم الملك فاروق وحاشيته - «محوريى الهوى»، فى حين كان كثيرا من المصريين لا يكنون وداً لدولة الاحتلال . وحين دخلت إيطاليا الحرب فى ١٠ يونية ١٩٤٠ نادى أحمد ماهر بضرورة إعلان مصر الحرب على دول المحور على اعتبار أن عدم دخولها الحرب يعد اقراراً منها بأن إنجلترا تحميها وبأنها هى المسئولة عن استقلالها ، فى حين أن اشتراكها فى الحرب يعطيها الحق - بعد انتصار الحلفاء - فى أن تتوصل إلى جلاء القوات البريطانية عن اراضيها . ولكن رأى أحمد ماهر لم يؤثر كثيراً على الرأى العام الذى لم يكن يتوقع انتصار إنجلترا في مواجهة الانتصارات الالمانية المتلاحقة وسيطرة هتلر على غربى أوروبا ، خاصة وأن الكثرين لم يكونوا يتوقعون جلاء انجلترا عن الاراضى المصرية فيما لو خرجت منتصرة من الحرب - وأهم من هذا أن المصريين كانوا يخشون أن يؤدى إعلان مصر الحرب على دول المحور إلى أن تتعرض أراضيها للقصف الجوى والدمار ، وبالتالى فقد مالوا إلى سياسة تجنيب البلاد ويلات الحرب ، وهى السياسة التى سارت عليها وزارة على ماهر التى خلفت وزارة محمد محمود . ومع ذلك فقد تمسك السعديون بضرورة دخول مصر الحرب واستقالوا من وزارة حسن صبرى الذى خلف على ماهر ، وإن يكونوا قد عادوا إلى الاشتراك فى الحكم فى عهد وزارة حسين

سرى ذاهبين إلى أنهم لا يمانعون فى الاشتراك فى وزارة تسير على سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب مادامت هذه الحرب بعيدة عن مدنها واراضيها ومادامت القوات الايطالية المتمركزة فى ليبيا تتراجع ولا تتقدم كان على بريطانيا أن تتكيف لسياسة تجنيب مصر ويلات الحرب وأن تكن قد استطاعت أن تفرض تفسيراً يزداد صرامة لمواد معاهدة ١٩٣٦ ، ولم تكن لتتردد إذا ما لاح لها أن مصالحها الأساسية تتعرض للخطر فى أن تتدخل بشدة فى شئون مصر الداخلية حتى ولو اضطرت إلى استخدام القوة كما حدث فى أوائل فبراير ١٩٤٢ .

فقد تقدمت القوات الالمانية التى جرى نقلها إلى ليبيا إلى داخل الاراضى المصرية وانتقلت تحت قيادة القائد المظفر إروين روميل من نصر إلى نصر واقتربت من الاسكندرية وادى انتصارها إلى أزمة سياسية كبيرة بعد أن أصرت الدوائر البريطانية على ضرورة أن يتولى النحاس ، زعيم الوفد المصرى الذى وقع معاهدة ١٩٣٦ ، رئاسة الوزراء على اعتبار أنه اقدر من غيره على تنفيذ بنود المعاهدة نصاً وروحاً خدمة لجهود الحلفاء العسكرية ، وبوجه خاص، البند السابع الذى كان ينص ، فى حالة دخول أحد الطرفين الحرب ضد طرف ثالث ، على ان يبادر الطرف الثانى إلى معاونته بصفته حليفاً . وحاول الملك فاروق – الذى كانت الدوائر البريطانية تتشك فى

اتصاله بألمانيا وإيطاليا ، وهو الشك الذى كشفت الوثائق التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية انه يستند إلى أسس قوية .. حاول أن يفوت على الانجليز تنفيذ تهديداتهم . لهذا أجرى مع كبار الساسة المصريين اتصالات اقترح خلالها تشكيل وزارة قومية برئاسة النحاس الذى أصر على أن يشكل وزارة وفدية خالصة ، وفى يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ وجه السفير البريطانى انذاراً إلى الملك فاروق حمله فيه المسئولية وما قد يترتب على ذلك من نتائج إذا لم يكلف النحاس بتشكيل الوزارة قبل الساعة التاسعة مساء ، وحاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين فى الوقت الذى عقد فيه الملك اجتماعاً حضره كل كبار ساسة مصر الذين حاولوا أن يفوتوا على الإنجليز انذارهم بالتوصل إلي صيغة تنهى الأزمة . وحين لم يوافق النحاس على أى حل وسط خطب أحمد ماهرقائلاً : «إننا نعرف وطنية النحاس باشا وحرصه على استقلال بلاده وسيادتها ، وهذا الانذار الذى وجهته الحكومة البريطانية إلى الملك ضربة قاضية على هذا الاستقلال ولاسبيل إلى رد هذه اللطمة إلا أن يرفض النحاس باشا تأليف الوزارة وأن يرفضها بسبب هذا الإنذار ، فأنا أرجوك يا رفعة الباشا وأهيب بوطنيتك أن تنقذ استقلال بلادك وسيادتها» . وأخيراً اضطر الملك ازاء تمسك النحاس بموقفه والتلويح بخلعه إلى الرضوخ للضغط ، فقرر تكليف

النحاس بتشكيل الوزارة - وعندئذ قال أحمد ماهر للنحاس : «إنك.. تؤلف الوزارة على أسنة الحراب البريطانية» .

وظل النحاس فى الحكم لأكثر من عامين تململ خلالهما الملك فاروق ولم يستطع أن يفعل شيئاً بسبب ظروف الحرب ، حتى إذا ما أخذ مجراها يتحول وبدت دلالات قرب هزيمة المحور بادر إلى اقالة النحاس للمرة الرابعة وعين أحمد ماهر رئيساً للوزارة وقرر أحمد ماهر أن يشرك فى وزارته جميع الاحزاب غير الوفدية - وفى الانتخابات التى جرت فازت أحزاب الحكومة على الوفد وفاز السعديون بأغلبية نسبية على سائر الاحزاب التى اشتركت فى الحكم ، وشن أحمد ماهر - منذ تشكيله الوزارة - الحرب على النحاس واتهمه فى أحد تصريحاته بأنه كان أسوأ الدكتاتوريين وبأنه كان يريد أن يحكم مصر بأساليب هتلر وموسوليني محتمياً وراء واجهة برلمان يعرف الجميع أى انتخابات جاءت به .. ومالبث أن بلغته الحكومة الأمريكية بأن دول الحلفاء ستعقد مؤتمراً فى سان فرنسسكو فى ابريل ١٩٤٥ لانشاء هيئة دولية جديدة تحل محل عصبة الأمم وبأن الدول التى تشترك فيها يجب أن تعلن الحرب على خصوم الحلفاء قبل أول مارس ١٩٤٥ ، وفى ٢٤ فبراير أعلن ماهر أمام البرلمان وخلال جلسة سرية عزمه على إعلان الحرب على المانيا واليابان ، ولم يكن لهذا القرار من هدف -

وقد اوشكت الحرب على الانتهاء – سوى أن يسمح لمصر بالحصول على مقعد فى مؤتمر السلام ، ولما كان إعلان الحرب لا يمكن أن يعتبر إعلاناً لحرب دفاعية فقد تقرر عرض الأمر على البرلمان فى جلسة سرية يعقدها مجلس النواب ثم يعقدها مجلس الشيوخ . ولكن الاسباب التى ساقها أحمد ماهر لإعلان الحرب لم تنل ما تستحقه من فهم وبعد أن عرض الأمر على مجلس النواب ومر بالبهو الفرعونى متجهاً إلى مجلس الشيوخ تصدى له بعض الشباب الذين أطلق أحدهم عليه الرصاص فأرداه قتيلاً وذلك في يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٥ وخلفه فى رئاسة الوزارة صديقه محمود فهمى النقراشى الذى اغتيل هو الاخر فى أوائل عام ١٩٤٩.

وهكذا انتهت حياة سياسى مصرى تميز بحنكته وتمرسه بأساليب الحياة البرلمانية . ويصفه معاصره الدكتور محمد حسين هيكل بأنه لم يكن يكتب خطبه ويتلوها على البرلمان بل كان يحضر النقط الاساسية ثم يرتجل فى ترتيب ومنطق دقيق «وبأنه» لم يكن خطيباً ساحراً يبهر سامعيه بقوة بلاغته ولكنه كان برلمانياً ممتازاً يقدم بين يدى رأيه بحجج خصمه ويضفى عليها من منطقه البارع قوة أكثر من قوتها الذاتية ثم يتناولها بعد ذلك بالتنفيذ فى دقة وبراعة تجذب إليه سامعيه . وهو لم يكن يضيق بالمقاطعة أو بالمعارضة وهو يخطب ، بل كان يرحب بكل مقاطعة لأنه كان فى

عهده الأول بالحياة البرلمانية مقاطعاً بارعاً – فإذا قوطع استل من مقاطعات خصومه حججاً له يؤيد بها رأيه . وكان له من حدة الذكاء وسعة الاطلاع ما يعاونه على إدراك غرضه أشد «المعاونة» ويضيف إلى ذلك أنه «كان إلى ذكائه حازماً وإلى لطفه وظرفه شديد الاعتداد بنفسه » ولقد سمعته وهو رئيس للوزراء يخطب فينا – نحن الطلبة – مدافعاً عن سياسة حكومته حين استبعدت بريطانيا عن الترشيح للانتخابات البرلمانية سودانياً وحدوياً وهو على البرير الذى سعى إلى أن يمثل مصر والسودان في البرلمان المصرى تحقيقاً لمبدأ وحدة وادى النيل ، وقد شرح أحمد ماهر موقف حكومته فى مواجهة الاعتراض البريطانى بهدوء ومنطق والابتسامة لا تبرح شفتيه مما هدأ ثائرة الطلاب ، والحق أن الحياة الحزبية قد ربت عدداً لا يحصى من الخطباء الذين ساعد الكثيرين منهم على البلاغة والتأثير فى السياسيين واصطناع المنطق احترافهم للمحاماة التى كانت هى الأخرى مدرسة أخرى لتربية الخطباء . وتلك سمة بارزة لمعظم ساسة ما بين الثورتين (١٩١٩ – ١٩٥٢) الذين لمع منهم أمثال وليم مكرم عبيد وإبراهيم عبدالهادى وأحمد حسين (زعيم جماعة مصر الفتاة) وحسن البنا ومصطفى النحاس وفى قمة هؤلاء سعد زغلول الذى كان ساحراً فى خطابته بحيث أن

بعض فقرات خطبه جرى تداولها من جيل إلى أخر ، بل وحتى اليوم .

فأحمد ماهر ، إذن ، هو ابن عصره ووطنى آمن بضرورة استقلال بلاده وتبوئها المكانة اللائقة فى المجال الدولى واصطنع لذلك وسائل عدة حاول بها الوصول إلى ما يستطيع الوصول إليه من أهدافه فى شجاعة تحمد له دفع حياته فى نهاية الأمر ثمناً لها .

مكرم عبيد
والكتاب الاسود
١٨٨٩ - ١٩٦١



● مكرم عبيد

أثار توزيع الكتاب الاسود الذى هاجم فيه مكرم عبيد – سكرتير عام حزب الوفد – ممارسات مصطفى النحاس زعيم الحزب ورئيس الوزراء ردود فعل قوية كانت بمثابة المعول الثانى الذى زعزع هذا الحزب الذى تصدر الحياة السياسية المصرية منذ ثورة ١٩١٩ – أما المعول الآخر فكان تشكيل النحاس وزارته الرابعة فى أعقاب حصار الانجليز لقصر عابدين بالدبابات وفرضهم على الملك فاروق أحد خيارين : إما تكليف النحاس بتولى الحكم وأما تنازله عن العرش . وكان فاروق حينئذ لا يزال يتمتع بقسط وافر من الشعبية بحيث نال عطف أغلبية المصريين الذين عدوا ما حدث اعتداء على كرامة البلاد واستقلالها ، مما أدى إلى المساس بشعبية زعيم حزب الوفد الذى كان قد تشكل قبيل ثورة ١٩١٩ للسعى فى سبيل استقلال البلاد .

حقيقة ان النحاس كان قد تصدى – منذ تبوئه زعامة الحزب فى عام ١٩٢٧ – فى أعقاب وفاة الزعيم سعد زغلول لأوتوقراطية القصر وسعى إلى استكمال الاستقلال الذى نص عليه تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ عن طريق المفاوضات ، إلا أنه رأس الجبهة الوطنية التى وقعت معاهدة ١٩٣٦ التى قننت الاحتلال البريطانى برغم الدعاية واسعة النطاق التى روجها الزعماء الوفديون والتى مفادها

أنهم حصلوا لمصر على الشرف والاستقلال : فقد بقيت القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس وغيرها وكان المندوب السامى البريطانى (الذى أصبح سفيرا بعد توقيع المعاهدة) يتدخل فيما يشاء من شئون البلاد الداخلية باسم المحالفة التى نصت عليها المعاهدة .

ولم يكن الوفد منذ تشكيله فى عام ١٩١٩ وتحوله إلى حزب سياسى فى أوائل العشرينات حزبا بالمعنى الأوروبى للكلمة ، بل كان حركة سياسية تتكلم باسم الأمة جميعا ، فكان يضم الأقباط والمسلمين فى إطار الوحدة الوطنية ويحظى بتأييد الشارع المصرى ويحرز أغلبية ساحقة فى أى انتخابات حرة وينادى بالديمقراطية والعلمانية وان يكن تكوينه يتضمن تناقضات مترتبة على احتوائه على كبار ملاك الأراضى والفلاحين والمهنيين والعمال والطلبة ، وهى الفئات الاجتماعية التى كانت قد وحدتها الروح الوطنية المتدفقة التى ما لبثت أن ضعفت بالتدريج بفعل الانقسامات التى جرت داخل الحزب نتيجة لدكتاتورية زعامته وانحسار الحماسة للنضال التى تميزت بها الحركة الوطنية خلال ثورة ١٩١٩ والنكسات التى تعرض لها الحزب نتيجة للخصومة القائمة بينه وبين القصر وتدخل الانجليز فى شئون البلاد الداخلية .

ابن سعد البار

أما زعيم الحزب منذ عام ١٩٢٧ وحتى استيلاء الضباط على الحكم في عام ١٩٥٢ فهو مصطفى النحاس الذى كان قد اشتهر بقوة وطنيته ونزاهته ونظافة يده وقربه من قلوب الجماهير . وأما (وليم) مكرم عبيد فقد كان ساعد النحاس الأيمن وسكرتيرا عاما للوفد . وكان مكرم من الشبان المحيطين بسعد زغلول الذى قدر فيه ذكاءه وثقافته وجاذبيته الجماهيرية وكفاءته كمتحدث وكاتب ممتاز باللغتين العربية والانجليزية . ولقد توثقت صلات مكرم بسعد زغلول بحيث خلع عليه لقب «ابن سعد البار» واستطاع بمواهبه الخطابية وقوة بيانه أن يحرز مركز الصدارة في مهنة المحاماة وأن يتولى أكثر من مرة رئاسة نقابة المحامين وكان مكرم والنحاس متلازمين لفترة طويلة ، وكان كل منهما يكمل الآخر - فقد كان مكرم بمثابة مستشار النحاس الدائم ، وكان قد استغل نواحي القصور في شخصية زعيم الوفد البسيط والصريح وطيب القلب الذى لم يتصف بكونه مفاوضا ماهرا بإمكانه التعامل مع العقلية الأوربية . وكانت سيطرته على النحاس من أهم أسباب توجيه الهجوم إلى الوفد الذى كان خصومه يثيرون حملتهم على الوفد الذى اتهموه بالوقوع تحت التأثير «القبطي» .

وقد تولى مكرم عبيد وزارتى المالية والتموين فى الوزارة الوفدية التى تولت الحكم فى أعقاب حادثة ٤ فبراير فى فترة خطيرة من تاريخ مصر والعالم ، إذ أن الحرب العالمية الثانية أدت إلى إيجاد مشاكل تموينية فى البلاد بسبب صعوبة أعمال التصدير والاستيراد فى الوقت الذى كانت فيه قوات المحور قد اخترقت الحدود المصرية من ناحية ليبيا واقتربت من الإسكندرية وتحركت مظاهرات فى شوارع القاهرة هاتفة «إلى الأمام يا روميل» !! ومنذ أوائل عهد حكومة الوفد الرابعة برز عامل جديد فى حياة النحاس الذى كان قد تقدمت به السن وهده الكفاح والصراع مع القصر وضيق ذات اليد - وهذا العامل هو السيطرة التى أحرزتها عليه زوجته الشابة الجميلة الطموحة السيدة زينب الوكيل التى كانت تحلم باستغلال سيطرتها على زعيم الوفد للاثراء هى وأقاربها ، وقد قيل إنها كانت تتدخل بصورة مباشرة لدى الوزراء أو ترقية أقاربها أو منحهم الامتيازات والاستثناءات عن طريق أذونات التصدير والاستيراد . وفى نفس الوقت أقر النحاس الترقيات الاستثنائية للوفديين الذين بقوا خارج الحكم منذ عام ١٩٣٧ وهى الترقيات التى رفضها مكرم عبيد . وبالاضافة إلى ذلك فقد انضم إلى الوفد شاب ثرى طموح هو النائب فؤاد سراج الدين الذى سعى إلى التقرب من زعيم الوفد وإحراز ثقة زوجته فى الوقت الذى اختفى

فيه كبار المثقفين من الحزب وبرز فيه نفوذ كبار الملاك والأثرياء وقد أدت تطلعات فؤاد سراج الدين وممارسات زينب الوكيل إلى نقمة مكرم عبيد ، وانتهز القصر ذلك للعمل على دق إسفين بين مكرم والنحاس أملا فى إضعاف حزب الوفد والانتقام من وقوفه للسلطة الملكية بالمرصاد فى الوقت الذى ربما وعد فيه القصر مكرم برئاسة الوزارة التى كان يرى نفسه جديرا بها لما كان يتمتع به من شعبية قوية خاصة وقد كان له اتباع كثيرون خارج وداخل الحزب كما كان يستند إلى تأييد العمال وشباب الحزب . وكانت النتيجة أن اشتدت الخلافات داخل الوفد ولم يسع أحد من كبار مسئوليته إلى رأب الصدع وذلك نتيجة لشماته معظم أقطاب الحزب فى مكرم الذى استأثر بصداقة النحاس وأصبح الرئيس غير المتوج لحزب الأغلبية والنتيجة هى اتصال مكرم مباشرة بالقصر متجاهلا النحاس ذلك الزعيم الذى سبق له أن خلع عليه اسم «الزعيم المقدس» وفى يونية ١٩٤٢ طرد النحاس مكرم من السكرتارية العامة للوفد وفى يولية طرد كذلك من عضوية الحزب فأعلن تشكيل حزبه «الكتلة الوفدية المستقل ة » التى وصفها بأنها «الوفد مصغرا والوفد مطهرا» !!

مخالفات ومحسوبية

وردا على كل ذلك قرر مكرم عبيد أن يهاجم النحاس علنا ويكشف النقاب عن أمثلة كثيرة من المحسوبية والفساد فى حكومة الوفد وأن يسجل اتهاماته فى كتاب ينشر فى الوقت المناسب . وهكذا نبتت فكرة تأليف «الكتاب الأسود» على شكل عريضة تقدم إلى الملك متضمنة تفاصيل المخالفات والمحسوبية والفساد مما ارتكبته حكومة الوفد . وقد جرى طبع الكتاب فى مكان سرى وخطط لأن يتسلم الملك نسخة منه فى الوقت الذى يجرى فيه توزيعه على أيدى أعضاء «الكتلة الوفدية» فى جميع المديريات . وكان الملك فاروق الذى أبدى حماسته لفكرة تأليف الكتاب يتابع أنباء إعداده والاحتياطات المتخذة لمنع الحاكم العسكرى من افساد هذه الخطة بل إنه قبل أن تودع صورته وملحقاته من الوثائق فى إحدى خزائن قصر عابدين إلى أن يتم تحديد موعد تقديمه إليه واذاعته على الناس .

وكان من المتوقع أن يكون الكتاب صغيرا ولكنه أخذ يتضخم نتيجة لما تلقاه مكرم من فضائح كان حريصا على أن يستخرج صورا من وثائقها لتعزيز كل ما يكتب ويسجل وتم الاتفاق على نقل ملازم «الكتاب الأسود» من الأماكن التى كان مبعثرا فيها إلى مكان مأمون يتم فيه ضمها بعضها إلى بعض قبل أن يتم تغليف الكتاب.

وأما التوزيع فقد وضعت خطته بحيث ترسل النسخ فى أقفاص الفاكهة إلى جميع أنحاء القطر باسم أعضاء الكتلة وبداخل كل قفص تعليمات تقضى بألا تفتح النسخ إلا فى يوم ١٣ مارس ١٩٤٣ وهو يوم تقديم العريضة وتوزيع الكتاب الذى جاء على شكل عريضة إلى الملك تبين أسلوب العلاج الممكن للمخالفات وتطلب من الملك أن يزيح حكومة الوفد بأسرع ما يمكن صونا للدستور وحفاظا على العدل والكرامة والشرف وأن يعين لجنة قضائية خاصة لدراسة جميع الاتهامات الماسة بالأمانة ونزاهة الحكم وسرعة معاقبة المسئولين عنها . كما قدم اقتراح بسن قانون يتيح سؤال الوزراء والمسئولين عما اكتسبوه خلال اضطلاعهم بالسلطة وسن قانون آخر يضع حدا للإجراءات التى اتخذت ضد الحريات والأفراد والأحزاب وإطلاق سراح المسجونين السياسيين ودفع تعويضات عن المظالم التى انزلتها الحكومة الوفدية بخصومها .

طرد مكرم عبيد

وبتوزيع الكتاب الأسود حققت السراى هدفها الخاص بالعمل على هدم حزب الوفد بحيث لم تعد تعير كبير اهتمام بمكرم عبيد بعد أن استنفدت أغرضها منه ، ومن ثم اقتصارها على تحويل الكتاب إلى رئيس الوزراء مع رسالة تفسيرية مرفقة به . ومن ناحية أخرى سعى الملك - بعد ظهور الكتاب الأسود - إلى إقالة الحكومة

الوفدية ولو أن ظروف الحرب العالمية حالت دون ذلك بسبب تمسك الإنجليز ببقاء الحكومة الوفدية التى تعاونت معهم تعاونا كبيرا وطبقت بنود معاهدة ١٩٣٦ نصا وروحا . وفى البرلمان جرى طرح الكتاب الأسود من جانب مكرم والوفديين البرلمانيين ، واتخذ الأعضاء قرارا بشجب مكرم وكتابه وتجديد الثقة بالنحاس ووزارته ثم تقدم مكتب مجلس النواب باقتراح يقضي بطرد مكرم عبيد من عضوية مجلس النواب ، وبالفعل تم طرده من المجلس هو وجميع مؤيديه . وفى عام ١٩٤٤ ظهرت جريدة «الكتلة» التى حاول مكرم أن يجعلها منبرا لعرض اتهاماته وتعزيز مكانة حزبه الوليد . وفى ٩ مايو ١٩٤٤ قبض على مكرم عبيد الذى بقي في السجن إلى أن تعدل الموقف الدولى لصالح الحلفاء ولم تعد فيه للإنجليز حاجة إلى بقاء الحكومة الوفدية التى تمت إقالتها .

ورغم أن حزب الكتلة لم يجتذب إلى صفه كثيرا من الوفديين الذين آثروا البقاء فى حزب الأغلبية فقد كان للكتاب الأسود وجريدة «الكتلة» أثرهما فى زعزعة مركز النحاس وحزب الوفد فى الوقت الذى شجعت فيه السراى على الهجوم بلا هوادة على ذلك الحزب الذى طالما رفع لواء الديمقراطية والوطنية بحيث أصبح موقفه بعد هذه الأزمة أضعف مما كان عليه فى السابق . ومما ساعد على قوة تأثير «الكتاب الأسود» أسلوب مكرم عبيد البليغ الملىء بالسجع

والسخرية مما يلقى قبولا لدى جماهير الناطقين بالضاد - وأقدم هنا بعض نماذج من صياغة «الكتاب الأسود» .

حين فسر أنصار النحاس الخلاف بين مكرم والنحاس على انه ناتج عن حنق مكرم نتيجة لفقده سلطانه القديم فى الوفد كان رد «الكتاب الأسود» على ذلك هو تساؤله التالى : «ففيم وعلام نحنق وقد كنا فى كل أدوار الخلاف نشفق ونأبى إلا أن نشفق؟ نشفق من أن ينهار ذلك البناء الشامخ الذى ساهمنا فى تشييده حجرا فوق حجر وفى تخليده أثرا بعد أثر» .

- «كان جونا صفاء لا يشوبه كدر وثقة لا يعروها حذر إلى أن بزع شيطان المال بيننا فشاء وقدر» .

- أى مولاى الملك .. أفى عهدك يسام أفراد الشعب كالسوائم ، بل أين نحن من السوائم ، فإن لها جمعيات ترفق بها ، فلا سبيل للمجموع أن يحس وجوده ويتنفس .. ولا سبيل للفرد أن يعيش إلا أن يتلمس العيش ويتحمس أو يتحسس ويتجسس» !

وهكذا نكون قد قدمنا إلمامة بالكتاب الأسود الذى كان من المعاول الأساسية التى هزت دعائم حزب الوفد ومهدت للسخط العام الذى كان ينذر بتطورات جسام من شأنها أن تقضى على نظام الحكم القائم الذى اتضح الا أمل فى إصلاحه من الداخل ما دام اكبر الأحزاب العاملة على الساحة السياسية قد نخر فيه السوس

وهزمت قياداته التى فصلتها هوة واسعة عن الكتل الجماهيرية فما ان تجاوبت اصداء الهجوم على حزب الوفد من جانب خصومه ومن جانب من كانت تحركهم السراى حتى عمت الفوضى الحياة السياسية المصرية التى كان الملك فاروق قد سيطر عليها وهو يتصف بفساد يفوق ذلك الذى اتهم به الوفد والنحاس . وهكذا أصبحت الساحة السياسية التقليدية تعانى فراغا ينتظر من يملؤه فكان المنعطف الجديد الذى سارت فيه أوضاع مصر منذ عام ١٩٥٢ .

أحمد حسنين

عاشق الملكة والمغنية

١٨٨٥ - ١٩٤٦



● أحمد حسنين باشا

نحن هنا أمام شخصية لعبت دورا هاما فى السياسة المصرية فى الفترة الممتدة مابين عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٦ حين كان رئيسا للديوان الملكى، فلقد كان احمد حسنين خلال هذه الفترة يقيم الوزارات، ويسقطها ويتبوأ مركزا قويا فى القصر الملكى جعله يحرك الأحداث من وراء ستار دون أن يبدو عليه أنه يعرف الكثير مما كان يجرى على الساحة، بل أنه كان يؤكد لمعارفه أنه لا يفهم شيئا فى السياسة! ورغم ذلك فانه كان يضع خططه بدقة واحكام وينفذها بمهارة وحذر وصبر ومما ساعد على ذلك انه كان دارسا فاهما ولبقا ومهذبا، فإلى جانب إلمامه العملى بشتى التيارات والاتجاهات فانه جمع بين الثقافة الغربية وبين الاحتكاك الكافى بالحياة المصرية .

وهو ابن شيخ أزهرى درس بجامعة اكسفورد العريقة بانجلترا ثم تولى منصب مفتش بوزارة الداخلية خلال الحرب العالمية الأولى ثم شغل منصب سكرتير بسفارة مصر فى واشنطن ثم أصبح أمينا ثانيا للملك فؤاد ثم رائدا (للأمير) فاروق، خلال اقامته فى انجلترا قبل أن يتولى الحكم، ثم أمينا أولا للملك ثم رئيسا للديوان الملكى، وكان قد درس بتمعن كتاب «الأمير» لنكولو مكيافيللى وهو الكتاب الذى يوضح كيفية تدبير المؤامرات للوصول الى الهدف على أساس

أن «الغاية تبرر الوسيلة»، كما أنه كان مغامرا، ففى وقت ما كان بطل مصر فى لعبة الشيش وحاول أن يكون أول مصرى يقود طائرته الخاصة بمفرده من أوربا الى مصر، وقد سقطت به الطائرة مرتين ونجا من موت محقق قبل أن يعود الى البلاد، ثم قام برحلة استكشافية، في الصحراء الغربية وفى رحلة أخرى اكتشف واحة الكفرة مما أضفى عليه شهرة كبيرة قبل أن ينتقل للعمل بسفارة مصر فى واشنطن .

وفى لندن واتته فرصة العمر حين أصبح رائدا للأمير فاروق، فلما كان الملك فؤاد يعانى من مرضه الأخير الذى أدى الى وفاته بعد وقت قصير، كان من المتوقع أن يتولى ابنه العرش فى أى لحظة، فقد قرر حسنين أن يحرز ثقة الملك الشاب بمجاراة نزواته ومغامراته ، فى الوقت الذى كان فيه عزيز على المصرى يسعى فى لندن الى اعداد ولى العهد للاضطلاع بمسئولياته المستقبلية عن طريق الزامه بالانضباط والدراسة، لهذا اصطدم الرجلان وعاد عزيز الى مصر تاركا حسنين ينفرد بالأمير الشاب ويسيطر عليه بارضاء نزواته، ومن ثم تحميل حسنين مسئولية فساد فاروق بالصورة التى أدت فيما بعد الى سوء سمعته وإفساده الحياة السياسية فى مصر. فلقد سيطر على الأمير الشاب سيطرة قوية أضاف اليها فى المستقبل القريب سيطرة أخرى على الملكة الأم

(نازلى)، وبالتالى فإنه مالبث أن أصبح أقوى شخصية فى القصر الملكى صانع الأحداث فى ذلك الوقت .

فلقد انتهزت الملكة نازلى فرصة وفاة زوجها الذى لم تحبه قط وتولى ابنها القاصر العرش لتطلق لشهواتها العنان، وكان الملك فؤاد يفرض عليها رقابة صارمة، ويحيطها بالجواسيس، ولم يكن يتورع فى بعض المناسبات عن الإسراف فى ضربها، ولما كان قد تقدم بها العمر فانها سعت الى تعويض مافاتها، وانتهز حسنين تقربها منه، وبخاصة خلال رحلة ابنها إلى أوربا بعد توليه العرش، لكي يستحوذ على قلبها بلباقته وعزوفه عن تلبية رغباتها مما جعلها تتعلق به – ومن ثم سيطرته عليها وعلى ابنها معا .

نازلى والمثل العليا !

وفى بداية حكم فاروق سعى حسنين وعلى ماهر إلى أن يحرزا للملك الشاب قدرا كبيرا من الشعبية ومن ثم الدعايات المكثفة التى أحاطت بشخصه من حيث ورعه وتقواه وبطولته ووطنيته وديمقراطيته، ولو أن تهتك نازلى وهوان كبار الساسة وتذللهم قد جعل المثل العليا تتهاوى لدى فاروق منذ بداية حكمه وان كانت سيطرة حسنين عليه جعلته حريصا على الاحتفاظ بالشعبية القوية، التى أحاطت به فى بداية حكمه، وبينما فاروق يبدأ تجاربه فى الحكم وفى السياسة كان حسنين يسعى بدهاء الى أن يكون الرجل

الأول فى الدولة بعد الملك، فما أن تولى رئاسة الديوان الملكى فى أغسطس ١٩٤٠ حتى أدرك. أنه أصبح أقوى رجل فى القصر وربما فى مصر وأنه يلعب دورا خطيرا فى السياسة المصرية خاصة وأنه خبر حياة القصور ودسائسها واستولى على لب أهم شخصيتين فى هذه القصور، وهو فى هذا يشبه كثيرا من شخصيات القصر القريبة من السلطان منذ قديم الزمن، ومنهم ريشيليو في فرنسا وجعفر البرمكى فى بغداد وتوماس مور وولزى فى لندن فى الوقت الذى كانت فيه نازلى تلعب الدور الذى سبق أن لعبته كاترين دى مدسيس فى فرنسا وغيرها من أمهات الملوك الشبان فى مختلف العصور .

وقد تولى حسنين رئاسة الديوان الملكى فى فترة هامة من تاريخ مصر والعالم، فقد اشتد حينئذ الصراع العسكرى بين المانيا وحلفائها وبين انجلترا التي وقفت وحدها تواجه خطر النازية والفاشية بعد سقوط فرنسا واحتلال هتلر لأوربا الغربية ودخول ايطاليا الحرب إلى جانب المانيا، وقد تعرضت مصر لهجمات الايطاليين الذين عزز هتلر قواتهم فى الصحراء الغربية بفيلق افريقيا الذى كان يقوده إرفين روميل.. وكان الانجليز منذ عام ١٩٤٠ يودون أن يتولى النحاس باشا - زعيم الوفد حزب الأغلبية - الحكم أو تتولاه وزارة يرضى عنها، وتباطأ حسنين فى تنفيذ رغبة

الانجليز معللا تباطؤه فيما بعد بأنه كان يود أن يقوى الوفد ليجعله قادرا، على استخلاص حقوق البلاد من الإنجليز وأيا ما كان الأمر - فانه عمل على تعيين وزارات بها أعضاء يرضى عنهم الإنجليز، وإزاء اصرار الإنجليز على أن يتولى النحاس الحكم لكى يعمل على تطبيق نصوص معاهدة ١٩٣٦ التى تخدم جهودهم الحربية [١] حاولت السراى اقناعه بقبول تأليف وزارة ائتلافية، بل لقد رضى فاروق قبل حادثة فبراير ١٩٤٢ بوزارة وفدية خالصة، إلا أن حسنين كان يرفض ذلك ويواصل مماطلاته، لهذا يحمله الصحفى محمد التابعى الذى كان وثيق الصلة به وسجل ذكرياته فى كتابه «من أسرار السياسة والساسة» مسئولية حادثة ٤ فبراير خاصة أن حسنين رفض أن يسلم بالهزيمة أمام النحاس أو أمام السفير البريطاني سير مايلز لامبسون لورد كليرن فيما بعد، «فقد كان من خلقه عدم اليأس، وعدم التسليم بالهزيمة» وبينما حسنين يسوف ويماطل لم تكن الدوائر الانجليزية تستطيع الانتظار الي مالا نهاية خاصة أن الألمان وصلوا إلى مشارف الاسكندرية لهذا تقدموا

---

(١) درجت الوزارات المصرية التي تولت الحكم بعد نشوب الحرب العالمية الثانية على اتباع سياسة عرفت باسم تجنيب مصر ويلات الحرب، وهى سياسة أقرب ما تكون إلى الحياد.. وذلك رغم أن معاهدة ١٩٣٦ نصت على أن تبادر مصر إلى مساعدة انجلترا إذا مادخلت حربا. وقد اتهم على ماهر صاحب هذه السياسة بأن له ميولا محورية هو والملك فاروق.

بانذار الى الملك فاروق الذى خير بين تكليف النحاس بتشكيل الوزارة أو التنازل عن العرش، وكان لهم ماأرادوا بعد أن حاصروا القصر الملكي بالدبابات، فجاء النحاس الى الحكم على أسنة الرماح واعتبر حسنين ماجرى فى ٤ فبراير ١٩٤٢ هزيمة شخصية له فقرر الانتقام من النحاس ومن السفير البريطاني، وكانت الخطوة الأولى فى تنفيذ خطته هى الايقاع بين النحاس وبين كل من ساعده الأيمن مكرم عبيد: الشخصية الثانية فى حزب الوفد وأمين عثمان واسطة الاتصال بين الوفد والانجليز، ونجح حسنين فى تحقيق الشق الأول من هدفه مما أدى إلى طرد مكرم عبيد من الوفد ولم يكتف حسنين بذلك بل شجع مكرم على إصدار «الكتاب الأسود» الذى هاجم النحاس وزوجته التى انتهزت ظروف الحرب فى اثراء نفسها وأقاربها بوسائل غير مشروعة، وندد بالفساد الذى أخذ ينخر فى حزب الأغلبية بل لقد ساعد حسنين على توزيع «الكتاب الأسود» رغم الرقابة والأحكام العرفية، فقد وزعته سيارات الجيش بعد أن وفرت السراى الورق اللازم لطبعه فى وقت كان فيه التموين يخضع للقيود التى فرضتها الحرب .

مصرع أحمد حسنين

واستغل فاروق فرصة التنديد بالنحاس وبالوفد لإقالة الوزارة، ولكن السفير البريطاني حال دون ذلك لكى لا يؤدى مثل هذا الاجراء

الى التأثير فى المجهود الحربى البريطاني، وبعد تحول مجرى الحرب لصالح الحلفاء استغل فاروق الفرصة لاقالة النحاس فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤، وثنى على هذا فيما بعد بالعمل على مقتل أمين عثمان صديق الانجليز، ورغم أن حسنين كان يتوق إلى تولى رئاسة الوزارة بعد إقالة النحاس فقد آثر ألا يواجه مثل هذا الموقف غير الدستوري، ويتلقى الصدمة الأولى مؤجلا تحقيق هدفه إلى وقت لاحق، وعقدت نازلى الأمور حين طلبت من ابنها أن يأمر رئيس ديوانه بأن يتزوجها، وقيل إن فاروق وافق بشرط أن يكون الزواج عرفيا، كما قيل إن فكرة قتل أحدهما جالت بخاطره فى ذلك الوقت، وفي ٩ فبراير ١٩٤٦ لقي أحمد حسنين مصرعه فوق كوبرى قصر النيل بعد اصطدام سيارته بسيارة عسكرية بريطانية، وأنقذ مقتل حسنين فاروق من اغتياله أو اغتيال أمه، وإن تكن وفاة حسنين فى هذا الظرف مثارا للتساؤل، وكان فاروق فى أواخر حياة أحمد حسنين يتعمد إهماله وعدم استشارته بل كان يتعمد الاستهزاء به أمام خدمه ويقال انه ذهب إلى مسكن حسنين بحجة العزاء وأخذ ينبش فى أوراقه الخاصة وانتزع ورقة تدل الملابسات على أنها

وثيقة زواجه بنازلى التى مالبثت أن بارحت مصر إلى أوربا بعد أن فقدت عشيقها (أو زوجها) وتولاها الغضب على ابنها .

وبعد اختفاء حسنين عن المسرح انطلق كل من فاروق ووالدته لارضاء نزواته - فأخذ الملك يغشى اندية القمار حيث كان يمضى سهراته حتى مطلع الفجر، كما أصبح يزور الراقصات فى دورهن وتمادى فى السرقة واختلاس أموال الدولة وأخذ يهرب أمواله إلى الخارج ويعتدى على الأعراض وينتهك الحرمات مما أساء إلى سمعته وعجل بسقوطه، أما والدته فانها انتقلت من عشيق الى عشيق، بل وزوجت إحدى بناتها من أحد عشاقها رغم اختلافه فى الدين عن زوجته أخت الملك وكانت فضيحة هزت دعائم العرش ومرغت سمعة البيت المالك فى الرغام، وأخر لوثة من لوثات نازلى أنها أعتنقت الديانة الكاثوليكية وتزوجت فى خريف العمر أحد الأمريكان !

ولقد جرى التساؤل اخيرا من المسئول عن انحراف فاروق: أحمد حسنين أم نازلى ؟ ورغم أن هاتين الشخصيتين، لعبا دورا هاما فى هذا الافساد فان ظروف تنشئة فاروق هى الأخرى مسئولة عن فساده، فقد كان الملك فؤاد صارما مع ابنه ووكل أمر الاشراف عليه فى طفولته الى مربية انجليزية قاسية عزلته عن اقرانه بحيث لم يجد أمامه صحبة سوى الخدم، كما أن كونه الأبن الوحيد لوالده

والوريث الوحيد للعرش قد جعله موضعا للاهتمام من جانب رجال القصر الذين درجوا على أن يقدموا له وهو طفل وهو شاب امارات الخنوع والتذلل مما جعله يكفر بالناس ويتعمد اذلالهم، يضاف إلى هذا أنه أحيط فى بداية حكمه بنصحاء دربوه على أن يحكم وأن يملك ملفتين نظره الي الثغرات الموجودة فى دستور ١٩٢٣ وهى الثغرات التى أغرته بالحكم المطلق.. ومن المعروف - كما قيل - أن السلطة مفسدة وأن السلطة المطلقة لا حد لافسادها، ومصداقا لما نقول نلفت النظر إلى أسلوب تربية الأمراء وأولياء العهد فى بريطانيا منذ نعومة أظفارهم، فهم يتلقنون مزايا الديمقراطية ويتسلحون بكل أنواع المعارف والمهارات التى تؤهلهم للنجاح بعد أن يضطلعوا بمسئولياتهم، ويتدربوا على طاعة القوانين ومجاراة التقاليد والصحافة والبرلمان لهم بالمرصاد إذا ما خرجوا عن الجادة.

وأخيرا يمكننا أن نوزع مسئولية انحراف فاروق على كل من تملقوه وأرضوا نزواته ولم يحسنوا له النصح حرصا منهم على قضاء مصالحهم بعدم إغضابه يستوى فى هذا أحمد حسنين ونازلى وكبار ساسة البلاد الذين خلعوا عليه من الصفات مايضعه فى مصاف الأنبياء والمرسلين .!

محمد محمود

(١٨٧٨ - ١٩٤١)



● محمد محمود

من أبرز الشخصيات التى ظهرت على المسرح السياسى فى مصر فى فترة ما بين الحربين - فقد نفى مع سعد زغلول واسماعيل صدقى وحمد الباسل إلى مالطة فى عام ١٩١٩ مما عجل بنشوب ثورة ١٩١٩ المجيدة التي تعد أبرز حدث فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر بحكم أن شعبا أعزل وقف يتحدى بريطانيا زعيمة المنتصرين على دول الوسط ألمانيا والنمسا - المجر والدولة العثمانية وحلفائها . وسيرة محمد محمود تلقى ظلالا على الواقع الاجتماعى فى مصر فى أوائل القرن العشرين - فهو ينتمى الى شريحة كبار الملاك الزراعيين المصريين التى بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر تزاحم الطبقة التركية الشركسية التى احتكرت الوظائف العليا ووضعت أيديها على مساحات واسعة من الاراضى الزراعية بعد أن أغدقت عليها الأسرة الحاكمة لكى تعتمد عليها فى السيطرة على الريف وتنفيذ أوامر الحكومة . وقد بدأ ظهور هذه الشريحة فى أواخر عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣ ١٨٧٩) وهى الفترة التى انخرط فيها الأعيان فى العمل السياسى بعد أن مستهم الأزمة المالية وعانوا من التدخل الأجنبى.

وقد انحدرت أسرة محمود سليمان - والد محمد محمود - عن

أب (سليمان عبد العال) انتسب إلى قبيلة بنى سليم بالحجاز ، وقد أصبح محمود سليمان من كبار ملاك الأراضى ومن الأعيان البارزين فى صعيد مصر حيث وضع يده على أملاك شاسعة فى مديريتى أسيوط وجرجا وانتخب لمجلس النواب فى عام ١٨٨١ وانحاز بعض الوقت إلى الثورة العرابية بعد أن شارك فى المعارضة فى أوائل عهد الخديو توفيق (١٨٧٩ - ١٨٩٢) . فقد انضم الى الأعيان الذين اشتد سخطهم بسبب إلغاء دين المقابلة فى أوائل عام ١٨٨٠ - وكان الخديو إسماعيل قد فرض هذا الدين قبل ذلك بعقد من الزمان ونص على أن من يدفع ايجار أراضيه ست سنوات مقدما يعفى من نصف هذه الضريبة الى الأبد . وأقبل الأعيان على دفع دين المقابلة ثم ألغته لجنة التصفية فى أوائل عهد الخديو توفيق ، مما أدى إلى خسارة الأعيان للأموال التى دفعوها بالإضافة الى تحملهم أعباء زيادة ضرائب الأطيان العشورية فى نفس العام . لهذا أيد الأعيان مظاهرة عابدين فى سبتمبر ١٨٨١ وهى المظاهرة التى قام بها الجيش بقيادة أحمد عرابى وقدم فيها عرابى الى الخديو عريضة تطالب بالحكم النيابى واسقاط الوزارة القائمة التي كان يرأسها رياض باشا . ولم يكن باستطاعة الخديو توفيق أن يرفض المطالب الوطنية لأن جيشه كله انضم الى المتظاهرين بما فى ذلك حرسه الخاص . وكانت النتيجة هى سقوط

وزارة رياض وتولى وزارة يرأسها محمد شريف باشا حاولت تهدئة الموقف بإبعاد الوحدات العسكرية التى اشتركت فى مظاهرة عابدين الى خارج القاهرة التى ضمن الأعيان بعدها تعهد الضباط بعدم التدخل فى السياسة واشتركوا فى المطالبة بتشكيل مجلس نيابى رأسه محمد سلطان باشا أبرز أعيان مصر الوسطى . وسرعان ما احتدم الموقف حين طالب النواب بمناقشة الميزانية وهو ما رأى الشيخ محمد عبده تأجيله بعض الوقت حتى ينجلى الموقف ويخف خطر التدخل الأجنبى خاصة أن قانون التصفية الذى فرضته انجلترا وفرنسا فى أوائل عهد الخديو توفيق كان ينص على أن يخصص نصف الميزانية لدفع أقساط الديون التى استدانها الخديو إسماعيل ومن ثم كان اشراف مجلس النواب على مناقشتها يمس المصالح الأجنبية فى مصر . وأدت هذه الأزمة الى سقوط وزارة شريف وتولى وزارة وطنية يرأسها الشاعر - الضابط محمود سامى البارودى .

وحينئذ انقسم الثوار بعد أن انضم عدد كبير من النواب الى الخديو الذى سعى الى استمالتهم ملوحا لهم بالخطر الذى يهددهم فى حالة تعرض مصر لخطر التدخل العسكرى الإنجليزى - الفرنسى خاصة وقد لوح بعض خطباء الثورة للفلاحين بأن أراضى مصر ملك لهم لا لملاكها من صنائع الأسرة الحاكمة . وكانت

النتيجة أن انضم كثير من الأعيان إلى جانب الخديو وأعلنوا رفضهم لمطالبة الضباط بخلعه . وقد تزعم الأعيان محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب الذى بعث برسائل إلى أعيان الأقاليم يطالبهم بألا يقدموا أى نوع من المساعدة للعرابيين وبلغ أوامر الخديو للمديرين وبعض أعضاء مجلس النواب من العمد ومنهم محمود سليمان وغيره يدعوهم فيها الى مساعدة الانجليز الذين بدأوا بغزو مصر - بل إن محمد سلطان لعب دوره فى توزيع منشور السلطان العثمانى الخاص بإعلان عصيان عرابى . وبعد موقعة التل الكبير (سبتمبر ١٨٨٢) اشترك محمود سليمان فى تقديم الهدايا لقادة الجيش البريطانى ، ثم ما لبث أن اعتزل العمل السياسى وعاد من جديد الى بلدته ساحل سليم .

● العودة للسياسة

وفى عهد الاحتلال نمت طبقة كبار الملاك الزراعيين الى حد كبير وبدأوا يزاحمون الطبقة التركية - الشركسية فاتسعت أملاكهم الزراعية وازداد اشتراك أبنائهم فى الوظائف الحكومية خاصة وقد احتضن الانجليز منهم من أبدوا استعدادهم للتعاون مع المحتل . وعاد محمود سليمان من جديد إلى العمل السياسى فأصبح فى عام ١٨٩٦ عضوا بمجلس شورى القوانين ثم وكيله المنتخب إلى أن جرى حله فى عام ١٩١٢ ثم جرى اختياره رئيسا لحزب الأمة الذى

تألف بمشاركة من الانجليز لموازنة ما اعتبروه تطرفا فى حركة مصطفى كامل الوطنية ، خاصة وأن اللورد كرومر سعى إلى استقطاب أعضاء الحركة الوطنية الذين اعتبرهم معتدلين و «عقلاء» من أمثال محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول . وقد ألفت شركة «الجريدة» فى منزل محمود سليمان الذى انتخب رئيسا لتحريرها . وبعد أن تحولت شركة الجريدة الى حزب الأمة ظل رئيسا له حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، خاصة وقد اختلف عن كثير من الشخصيات التى برزت على مسرح السياسة بسبب كونه من المصريين الخلصاء الذين لم يدخلهم دم أجنبى . وحين نشبت ثورة ١٩١٩ أصبح منزله مقرا للحركة الوطنية ورأس لجنة الوفد المركزية بعد تشكيله إلى أن أرغمته السلطة العسكرية الإنجليزية على مغادرة القاهرة والإقامة ببلدته ساحل سليم .

هذه هى الخلفية الاجتماعية لمحمد محمود الذى كان شديد الشعور بمكانته الاجتماعية وطامحا إلى أن تتوازى معها صلاحياته، ومن ثم ما عرف عنه من صلابة الرأى كان يرى فيها على حد قول المؤرخ احمد شفيق مظهرا من مظاهر العز والجاه - وقد قال عنه سعد زغلول فى مذكراته إنه «متكبر معجب بنفسه يستخف بغيره ، غيور يأكل بعضه اذا علا الغير عليه ، ويجهد نفسه (لكى) يخفى فضل غيره ليظهر فضله .. يضحى المصلحة

العامة للمصلحة الخاصة ، يطلب فى كل عمل يعمله شأنا خاصا فإن لم يجده فما أسهل عليه أن يهمله ، سيئ الظن كثير الوسوسة، غير أمين فى الرواية ولا مروءة عنده » . ومن ناحية أخرى فقد أجمعت الصحف الحزبية على نزاهته وعفة لسانه حتى لقب بالزعيم النبيل خاصة أنه تجنب فى معظم الأحوال أن يقول كلمة نابية فى حق خصومه .

وبعد أن تلقى بعض التعليم العام فى مصر أرسل الى بريطانيا، فكان أول مصرى يتخرج فى جامعة أكسفورد حيث درس التاريخ الحديث . ولقد تسلق بسرعة سلم بعض الوظائف الهامة خاصة وقد عرف عنه وعن والده موالاتهما للإنجليز الذين فتحوا أمامه أبواب الوظائف والترقية نتيجة لمكانة والده واتقانه للغة الانجليزية واتباعه بعض الخصال والعادات الإنجليزية برغم نشأته فى صميم صعيد مصر حيث للتقاليد أهمية خاصة . فقد تولى وهو فى شرخ الشباب وظيفة وكيل تفتيش غير دائم فى وزارة المالية ثم نائب مفتش فى هذه الوزارة فيما بين عامى ١٩٠١و ١٩٠٣ ثم سكرتيرا خاصا لمستشار الداخلية الانجليزى (١٩٠٥ ثم مديرا للفيوم ١٩٠٦) ثم مديرا لمنطقة قناة السويس (فيما بين عامى ١٩١٠ و ١٩١١) ثم مديرا للبحيرة (فيما بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٧).

وكان محمد محمود فى طليعة من قاموا بالنشاط السياسى فى

أعقاب الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى اعتقاله ونفيه إلى مالطة مع سعد زغلول وإسماعيل صدقى وحمد الباسل – وكان هذا النفى هو السبب المباشر لنشوب ثورة ١٩١٩ التي عمت مصر من أقصاها إلى أقصاها، ثم أطلق سراحه مع الزعماء الآخرين الذين توجهوا هم وغيرهم إلى باريس لطرح القضية المصرية على مؤتمر الصلح ، وكان في طليعة من عادوا إلى مصر بعد أن أوصدت أبواب مؤتمر الصلح أمام زعماء المصريين ، ثم كان في طليعة من انشقوا على سعد زغلـــول ووقفـــوا إلى جانب عدلي يكن يشدون أزره حين تفاوض مع الانجليز – ورغم ذلك فحين صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ صرح بأنه لم يحقق كل آمال الأمة بسبب التحفظات الأربعة التى سلبت مصر جوهـــر الاستقلال ولو أنه عاد فاعتبر التصريح خطـــوة كبرى نحو الاستقـــلال ونقطة أرتكاز قوية تستعين بها الأمة على حل المسائل موضع التحفظات .

وكان قد جرى التفكير فى هذه المرحلة فى تأليف حزب الأحرار الدستوريين (أغسطس ١٩٢١) بهدف العمل على سرعة صدور الدستور ، ثم تأسس الحزب على أكتاف كثيرين من أعضاء حزب الأمة القدامي وانتخب مجلس إدارته نائبين للرئيس ، أحدهما محمد محمود ، ثم أصدر حزب الأحرار جريدة يومية (السياسة) ثم أخرى أسبوعية (السياسة الأسبوعية) ، وكان معظم أعضاء حزب الأحرار الدستوريين ممن انفصلوا عن الوفد الذى رأسه سعد زغلول وكانوا

من معظـــم المخالفين لسعد والوفد ، فاعترفــوا بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى عده سعد نكبة وطنية كبرى . وكان حـزبهم يقوم على الوزراء القدامى وكبار الموظفين وملاك الأراضى سواء من المصريين أم من الطبقة التركية ، الشركسية القديمة ، ولم يكن يمانع من حيث المبدأ فى التعاون مع الملكية أو فى عقد اتفاق مناسب مع بريطانيا - إذ من الطبيعى أن تميل الطبقات الاجتماعية التى قام عليها إلى شىء من التفاهم مع الانجليز الذين كان بإمكانهم - عند الاقتضاء - أن يحموا طبقة كبار الملاك من ثورية الجماهير .

● زعامة الوفـــد

وبعد ظهور نتائج انتخابات ١٩٢٤ التى أحرز فيها سعد وأنصاره نصراً مؤزرا استقال عدلى يكن من رئاسة حزب الأحرار الدستوريين الذين ظلوا بدون رئيس طوال عام ١٩٢٤ وذلك رغم ترشيح الشائعات لمحمد محمود لرئاسة الحزب نتيجة لكونه النائب الأول لرئيس الحزب . إلا أن الاختيار وقع على عبدالعزيز فهمى الذى كان قد اصطحبه سعد زغلول وعلى شعراوى لمقابلة المندوب السامى البريطانى ومخاطبته فى أمر المطالب الوطنية ، وكان محمد محمود يطمع فى ذلك الوقت إلى انتزاع زعامة الوفد وهو الأمل الذى طالما راوده ، وبعد وفاة سعد زغلول فى عام ١٩٢٧ طمح

محمد محمود إلى انتزاع زعامة الوفد مستغلا ضعف القيادة الجديدة والتقت رغبته مع رغبة الملك فؤاد الذى سعى إلى التخلص من الوزارة الائتلافية التى رأسها النحاس وبذلك قاد محمد محمود حزبه لتحطيم الإئتلاف الوفدى - الدستورى الذى تشكل ضد وزارة زيور التى خلفت وزارة سعد زغلول وأخيرا تحقق طموح محمد محمود إلى رئاسة الوزارة بعد أن أصبح رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين بعد استقالة عبدالعزيز فهمى من رئاسة الحزب ، وظل محمد محمود رئيسا للحزب حتى وفاته فى عام ١٩٤١ .

وبعد أن أصبح محمد محمود رئيسا للوزارة فى عام ١٩٢٨ بدأ استخفافه بالدستور والحياة النيابية - فقد حل البرلمان وأوقف الحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد ولم يستشر حزبه أو زملاءه الوزراء ، معلنا أنه سيتبع سياسة القبضة الحديدية وأنه يستهدف القضاء على الأوتوقراطية البرلمانية المستندة إلى دستور ١٩٢٣ التى سمحت بطغيان الأكثرية على الأقلية .

وقد رحبت بعض الصحف الانجليزية بتعطيل محمد محمود للبرلمان على أساس أن المصريين لم يكونوا قد تأهلوا بعد للحكم النيابى وأن هذا التعطيل سيتيح للناس أن يتنبهوا إلى الشعور بالمسئولية السياسية ، وعلى أى حال فقد تنكر محمد محمود لكل ما أعلن إيمانه به ، من قبل ، ولكنه مع ذلك قاد حزبه من جديد

للائتلاف مع الوفد للتخلص من وزارة صدقى التى تولت الحكم فى عام ١٩٣٠ وألغت دستور ١٩٢٣ وزيفت الانتخابات وبقيت فى الحكم ثلاث سنوات وقف ضدها خلالها الوفد والأحرار الدستوريون الذين استطاعوا تحريك الجماهير ضد قبضة صدقى الحديدية إلى أن تم التخلص منها بتدخل كل من القصر والانجليز ، ثم تمهد السبيل للتفاوض مع بريطانيا بعد غزو ايطاليا للحبشة فى عام ١٩٣٥ وظهور مقدمات الحرب العالمية الثانية مما جعل الساسة المصريين يشكلون جبهة وطنية طالبت الانجليز بفتح باب المفاوضات من جديد ، وكان محمد محمود عضوا فى الهيئة التى تفاوضت حول معاهدة ١٩٣٦ ثم وقعتها، خاصة وأن بريطانيا مالت إلى الزام القوى السياسية الرئيسية فى مصر بالتوقيع على المعاهدة حتى لا تتنصل منها ، وبرر محمد محمود موافقته على المعاهدة بعدم إمكان الحصول فى معاهدة تتم عن طريق المفاوضات على مطالب مصر كاملة ، رغم كون المعاهدة خطوة نحو تحقيق هذه المطالب برغم القيود التى مست الاستقلال، وأوضح أنه لولا المزايا التى تضمنتها، ولولا الظروف الدولية القائمة ما أمكنه قبولها وبالتالى فإن طالب بتعديلها فى أقرب وقت ويشبه هذا رأيه فى تصريح ٢٨ فبراير الذى أيده وانتقد ما احتواه من سلبيات .

وفى وزارته الثانية والأخيرة التى أعقبت إقالة الوزارة الوفدية

في عام ١٩٣٧ عمد إلى تزوير الانتخابات فى نفس الوقت الذى عارض فيه أوتوقراطية القصر برغم تعاونه مع الملك فاروق فى البداية - فبعد ظهور نتائج انتخابات عام ١٩٣٨ سعى إلى ممارسة سلطاته كاملة مما أدى إلى اصطدامه بالقصر ثم انعزاله إلى أن توفى فى عام ١٩٤١ بعد أن حلت به الأمراض وأثر فيه نشوب الحرب العالمية الثانية وتهديد مصر من ناحية الغرب على يد القوات الفاشية .

الدكتور

محمد صلاح الدين

١٩٠٢ - ١٩٩١

أول من نادى بالحياد ووقف ضد الأحلاف



● د. محمد صلاح الدين

لمع نجم الدكتور محمد صلاح الدين خلال المفاوضات المصرية - البريطانية التى جرت فى عامى ١٩٥٠ - ١٩٥١ وأحرز خلالها شعبية كبيرة بسبب مواقفه الوطنية وتمسكه بحقوق بلاده .. وقد أطلقت عليه الصحافة المصرية حينئذ اسم «السياسى الصامت» بسبب حرصه الشديد على عدم الإسراف فى الإدلاء بالتصريحات ، كما أطلق عليه اسم «السياسى المبتسم» لأنه كان يخاطب مستمعيه والابتسامة لا تفارق شفتيه .

ولد محمد صلاح الدين فى طنطا فى عام ١٩٠٢ وهو ابن طبيب انتمى إلى أسرة بحى الخليفة فى القاهرة . وقد انخرط منذ شبابه فى العمل الوطنى - فاشترك فى ثورة ١٩١٩ التى كان خلالها عضوا فى لجنة الطلبة العليا عن مدرسة الحقوق وهى اللجنة التى كانت تنتمى إلى «الوفد المصرى» . ومنذ ذلك الوقت انغمس فى النشاط الوطنى : فكان يخطب فى المحافل وينظم التظاهرات ويطبع البيانات والمنشورات الوطنية ويوزعها على المواطنين ويقدم الاحتجاجات إلى مختلف الجهات . وكل ذلك مما لفت إليه نظر الزعيم سعد زغلول الذى قربه إليه - وأزمع وهو رئيس للوزراء فى عام ١٩٢٤ - إرساله فى بعثة دراسية إلى فرنسا للحصول على

درجة الدكتوراه فى القانون . ولو أن سقوط الوزارة على أثر مقتل السردار فى عام ١٩٢٤ قد أجل سفره . وخلال دراسته فى فرنسا أرسل الوفد مكرم عبيد إلى لندن للدعاية ضد وزارة محمد محمود ، واستعان مكرم بمندوبين عن الجمعيات الطلابية المصرية فى مختلف العواصم الأوربية الذين عقدوا فى لندن بحضوره مؤتمرا عاما اشترك فيه محمد صلاح الدين باعتباره أحد أعضاء الجمعية فى باريس . وبعد أن اتم دراسته عاد إلى مصر حيث لم يلبث أن أصبح أحد كبار المحامين الوطنيين . وقدر مصطفى النحاس – خليفة سعد – كفاءته ونزاهته فاختاره مديرا لمكتبه فى رئاسة مجلس الوزراء ثم سكرتيرا عاما للمجلس وفى مرحلة تالية عينه وكيلا لوزارة الخارجية . وفى عام ١٩٣٠ كان قريبا من النحاس خلال تفاوضه مع ارثر هندرسون .

ثم كان له دور فى أعمال الجبهة الوطنية التى تولت المفاوضات فى عام ١٩٣٦ . وفى عام ١٩٥٠ تم تعيينه وزيرا للخارجية فى آخر وزارة وفدية وذلك برغم اعتراض الملك فاروق على ترشيحه بحجة صغر سنه (وكان حينئذ يبلغ الثامنة والأربعين !) ولو أنه يحتمل أنه كان يريد أن يعين فيها أحد رجاله . إلا أن النحاس تمسك به تمسكه بالدكتور طه حسين .

وحين اضطلع بمفاوضة الإنجليز فى عامى ١٩٥٠ – ٥١ كان قد

قرأ كل ما يتعلق بالقضية المصرية من وثائق رسمية كما كان قد حضر في سكرتارية النحاس كل مفاوضة أجراها واطلع على محاضر المفاوضات التى أجراها سواه . يضاف إلى هذا أن دراسته فى مصر كانت قانونية وأن دراسته العليا فى باريس كانت قانونية - سياسية مما ساعده على الإلمام بكل جوانب القضية المصرية . كما اشتغل بالصحافة فترة لا بأس بها وبالمحاماة فترة أطول . وهكذا فإن دراسته وتجاربه كانت تؤهله للتفاوض بمهارة لانتزاع حقوق مصر من المستعمر البريطانى .

وفى ٢٤ أبريل ١٩٥١ حددت حكومة الوفد مطالب مصر على الوجه التالى:

١ - الشروع فى إجلاء القوات البريطانية عن مصر بمجرد عقد الاتفاق على ألا يتجاوز ذلك مدة سنة .

٢ - تسليم القاعدة البريطانية فى قناة السويس إلى القوات المسلحة المصرية بمجرد اتمام الجلاء .

٣ - اعطاء أولوية خاصة لتزويد الجيش المصرى بالأسلحة والمعدات اللازمة فى أقرب وقت باعتبار مصر قائمة فى منطقة استراتيجية.

٤ - وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى وتمتع السودانيين فى نطاق هذه الوحدة وفى مدى عامين بالحكم الذاتى .

٥ - عقد اتفاق بين الطرفين يمكن بمقتضاه عودة القوات البريطانية إلى الجهات التى يتفق بين الحكومتين على ضرورة عودتها إليها للمعاونة في الدفاع عن مصر فى حالة وقوع اعتداء مسلح عليها أو فى حالة اشتباك بريطانيا فى حرب نتيجة لاعتداء مسلح على البلاد العربية المتاخمة .

٦ - إذا عادت القوات البريطانية إلى مصر وفقا للبند السابق يتعين الشروع فى إجلائها عنها بمجرد انتهاء العمليات الحربية على أن يتم الجــلاء برا وبحــرا وجوا فى مدة اقصــاها ثلاثــة شهور .

٧ - إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وجميع ملحقاتها وكذلك اتفاقا ١٨٩٩ (الخاصان بالسودان) بمجرد سريان الاتفاق الجديد . وفى أوائل صيف ١٩٥٠ رحب وزير الخارجية البريطانية - إرنست بيفن - بفتح باب المفاوضات واقترح أن يجرى أولا بين رئيس اركان حرب الامبراطورية البريطانية - فيلد مرشال سير وليم سليم - والحكومة المصرية بحث رسمى ، باقل علانية ممكنة ، للنواحى العسكرية للمسألة التى تواجه بريطــانية فى الشرق الأوســط ووافقت الحكومة المصرية على ذلك على أساس مبدأى الجلاء ووحدة وادى النيل.

وجاء وليم سليم إلى مصر فى صيف ١٩٥٠ وأوضح للمسئولين أنه لا يمكن فصل المسألة السياسية عن المسألة العسكرية وأكد

وجود «الخطر الروسى الداهم» وأنه لا يمكن لدولة واحدة مقاومته ، وأن الحل الوحيد هو تكتل الدول ذات المصلحة فى مقاومته على أن تتنازل كل منها عن سيادتها ، ملوحا بأن بريطانيا ذاتها قد تنازلت هى وغيرها من البلدان عن بعض سيادتها وقبلت وجود قوات اجنبية على أراضيها خاصة بعد أن أطرحت الولايات المتحدة سياسة العزلة واشتركت اشتراكا فعليا فى مشروعات الدفاع عن العالم الغربى . وأضاف وليم سليم أن مصر والشرق الأوسط سيكونان مجالا لاهتمام السوفييت فى حالة نشوب الحرب وأنه ليس باستطاعتها أن تنجو بنفسها إذا اثرت الحياد - إذ لا تستطيع الحياد إلا إحدى دولتين : إمـــا قوية (ومصـــر حينئذ غير قـوية) أو صغيرة لا يطمع فيها أحد . فإذا عجزت مصر عن البقاء على الحياد اضطرت إلى الدفاع الذى يستلزم حلفاء ، وبريطانيا هى الحليف . وأوضح سليم أنه يتطلع إلى نظام للدفاع يظهر بجلاء أن وجود الجيوش البريطانية فى منطقة قناة السويس لا يعنى الاحتلال بأى حال ، بل هدفه الدفاع لمواجهة الموقف الدولى ، وأن باستطاعة السلطات العسكرية المصرية أن تجد نظاما يخدم مصالح البلدين المشتركة.

ورد مصطفى النحاس على كل هذه الحجج بقوله إن الشعب المصرى لا يمكن أبدا أن يركن إلى وعود جديدة أو يقبل نظريات

مستحدثه ترمى فى النهاية إلى إبقاء قوات اجنبية علي الأراضى المصرية تحت أى اسم أو باية صفة . وأن ثقة الشعب المصرى قد ضعفت فى وعود بريطانيا ونظرياتها وكذلك بالنسبة إلى الدول الكبرى المسيطرة على العالم . وأنه يجب البحث عن طريقة اخرى فى تعاون من نوع جديد يحقق الجلاء عن قناة السويس ويكفل المصالح المشتركة ، وأنه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تقنع الشعب المصرى بأن مصر ستكون مقصودة لذاتها بالهجوم بحكم أن وجود جيش أجنبى على أراضيها هو الذى سيعرضها للهجوم الروسى . وفى ٦ يونية ١٩٥٠ أدلى النحاس ببيان شامل عن مطالب مصر وأهمية الجلاء عن قناة السويس خاصة أن الدول المجاورة لروسيا - كتركيا وإيران - وهى الدول المعرضة لخطر الغزو المباشر ، لم تكن فيها قوات احتلال أجنبية وأن بريطانيا فى يدها الكثير من القواعد الجوية والاستراتيجية فى البلاد المحيطة بمصر كمالطة وقبرص وبرقة والأردن مما يسهل إرسال القوات منها إلى مصر فى حالة نشوب الحرب . وأوضح النحاس أن مصر مصممة على جلاء القوات البريطانية عن أراضيها جلاء ناجزا وانها ستقوى جيشها وتزوده بأحدث الأسلحة والعتاد على أن تتبادل الحكومتان الرأى حين تنشب حالة تهدد الأمن فى الشرق الأوسط . وإذا وقع اعتداء مسلح على مصر أو إذا دخلت بريطانيا الحرب

نتيجة لوقوع اعتداء مسلح على إحدى الدول المجاورة لمصر فإن مصر تتعاون عسكريا داخل حدودها وفى نطاق إمكانياتها مع بريطانيا للدفاع . وفى مثل هذه الأحوال إذا تبين أن من الضرورى استقدام قوات بريطانية إلى الأراضى المصرية فإنها ستلقى جميع التسهيلات لاستقبالها بعد الاتفاق عليها مقدما على أن تغادر القوات البريطانية الأراضى المصرية بمجرد انتهاء العمليات الحربية.

ولكن سليم أصر على ضرورة وجود القوات البريطانية على الأراضى المصرية فى وقت السلم بحجة أن دول الدومنيون (الكومنولث) لم تكن تقبل إرسال قوات لمساعدة مصر إذا لم تكن القوات البريطانية فى مصر بالفعل . ثم بين لوزير الخارجية المصرى إنه ليس من مصلحة مصر إزالة المنشئات والقواعد البريطانية من منطقة قناة السويس ثم محاولة إعادتها بعد ذلك على أساس جديد على اعتبار أن ذلك غير عملى ، وذهب إلى أن من الضرورى ، لأسباب تتعلق بالدفاع ، وجود قوات عسكرية لتكون فى حالة تسمح باستخدامها فى وقت قصير وأن يكون بها فنيون وموظفون إداريون . وكان رد صلاح الدين أن مصر مصممة على الدفاع عن نفسها وهى توافق على عقد محالفة دفاعية مع بريطانيا بشرط الجلاء الناجز الكامل ، وأن تكون هذه المعاهدة

معاهدة الند للند على قدم المساواة . إلا أن الجانب البريطانى أصر على ضرورة توافر قاعدة تكون معدة لاستقبال جميع النجدات فى الحال وهذه القاعدة هى قناة السويس .

تيار الوحدة من قديم الزمن

أما فيما يتعلق بالسودان فقد أصر الجانب المصرى على ضرورة وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى فى حين أصر الجانب البريطانى على ضرورة أن يكون للسودانيين رأي فى تقرير مصير بلادهم . واستغل السودانيون النزاع المصرى - البريطانى في التوصل إلى الاستقلال عن كل من دولتى الحكم الثنائى مما جعل الجانب المصرى يتهم الانجليز بمحاولة فصل السودان عن مصر وإلحاقه بالامبراطورية البريطانية . وعلى حين كانت حكومة الوفد تربط بين مسألتى الجلاء والسودان كان الجانب البريطانى يصر على فصل كل من المسألتين عن الأخرى . ولم يبد أى من الطرفين رغبة فى التوصل إلى حل وسط مما جعل المفاوضات تتسم بالتوتر والتصلب . فقد أبدى البرلمان البريطاني تمسكه بعدم الجلاء عن مصر دون احتياط للمستقبل ، فى حين تعرضت حكومة الوفد لضغط المعارضة والصحافة المصرية التى كانت تثير روح العداء للانجليز وتتهم الحكومة بالفساد واستغلال النفوذ ، فى الوقت الذي كان فيه الرأى العام يضغط على الحكومة عن طريق

التظاهرات والاضطرابات . ولما كان الانجليز على بينة من حقائق الموقف فإنهم اصطنعوا البطء فى إجراء المفاوضات على أمل استهلاك صلابة المفاوضين المصريين الذين قد ترغمهم الظروف على التضحية بالمكاسب الآجلة والتركيزعلى هدف مباشر .

وحاولت الولايات المتحدة التى أبدت انزعاجها من الموقف فى ايران وانعكاساته المباشرة فى منطقة الشرق الأوسط ومن ثم مساندتها للموقف البريطانى من المفاوضات من زاوية اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن الشرق الأوسط حاولت أن تتوسط بين طرفى التفاوض . ولفت صلاح الدين نظر الأمريكان إلى أنه لا ينظر إلى الدفاع من وجهة نظر مصر وحدها ، بل ايضا من وجهة نظر بريطانيا كذلك ولكن بشرط أن يتحقق ذلك بطريقة معقولة من زواية الدفاع عن الشرق الأوسط ، مشيرا إلى أن من حق دول المنطقة قبل غيرها أن تدافع عن اراضيها ومؤكدا أن مصر ستحافظ على فعالية قاعدة قناة السويس حتى تكون صالحة للاستعمال فيما لو نشبت الحرب . وأضاف إلى ذلك أن مما لا شك فيه أن المحصلة النهائية ستتوقف إلى حد كبير على المساعدة التى سوف تقدم للجيش المصرى وعلى المساعدة الاقتصادية التى ستقدم لشعوب المنطقة . ولخص وجهة نظره بأن مصر والبلدان العربية مستعدة للمساهمة بنصيبها فى الاستعداد العام لمواجهة

العدوان والمحافظة على السلام وعلى وحدة الأمم الحرة فى العالم . ولكنها من ناحية أخرى تصر على أن يكون لها الرأى الأول فى أراضيها وعلى أن تأتى المساعدة التى تبذلها بلدان أخرى فى المحل الثانى وحين يحتاج إليها الأمربشرط الا يترك كل عبء الدفاع على عاتق بلدان تقع خارج المنطقة .

كما أصر صلاح الدين على ربط مسألة الجلاء بمسألة السودان وهو ما لم تقبل به كل من بريطانيا والولايات المتحدة . وحين لوح السفير الامريكى فى القاهرة - جيفرسون كافرى - بالخطر السوفييتى الذى ادعى أنه أخطر من الامبريالية البريطانية وأكد على ضرورة بقاء القوات البريطانية استعدادا لمواجهة الروس كان رد صلاح الدين أنه يدرك خطر «الامبريالية الروسية» التى كانت بعيدة عن إدراك الشعب المصرى الذى لم يسبق له أن رأى جنديا روسيا أو تعرض للاحتلال الروسى . وحين لوح الجانب البريطانى بأن السودانيين لا يقبلون بالسيادة المصرية أجاب صلاح الدين بأن من حق السودانيين أن يقرروا مستقبلهم ولكن ليس فى الوقت الذى يسيطر فيه الإنجليز على السودان مما يشكل نوعا من العدوان .

ولما كانت السفارة البريطانية فى القاهرة تعتقد أن حكومة الوفد تخشى أن تواجه قلاقل قد لا تستطيع السيطرة عليها ومن ثم تفضيلها عدم التوصل إلى اتفاق سيىء قد يثير ضدها الرأى العام

فإنها بينت لحكومتها نوع المصاعب التى تواجهها حكومة الوفد مما جعل الحكومة البريطانية تتشدد فى موقفها خاصة وقد تولى وزارة الخارجية البريطانية هربرت موريسون المعروف بميوله الصهيونية وكان يختلف عن إرنست بيفن المتهم بميوله العربية من زاوية خطط الدفاع البريطانية . وإزاء مساندة الدول العربية لمصر فى موقفها من المفاوضات أيدت الولايات المتحدة انزعاجها وسعت إلى التوصل إلى حل وسط يقضى باشتراك قوات متعددة الاطراف فى الدفاع المشترك وهو مالم يوافق عليه صلاح الدين ولم يرفضه فى الوقت الذى ابدت فيه الدوائر البريطانية استعدادها لاحتلال القاهرة فيما لو لم يتسن التوصل إلى حل مرض وهو ما كانت تعارضه الولايات المتحدة بسبب ما قد يترتب على ذلك من آثار، ولو أن الجانب البريطانى لم يكن يخشى شيئا بسبب سيطرة القوات البريطانية على الموقف تماما فى منطقة قناة السويس وإمكان الانجليز الرد على أى عمل عدائي مصرى دون استخدام القوة وذلك نتيجة لسيطرتهم على الانابيب التى تمد القاهرة بالكيروسين وعلى المواصلات التى تربط مصر بالعالم الخارجى . وإزاء التدخل الامريكى بدأ العسكريون والدبلوماسيون الانجليز والامريكان يضعون الخطط الخاصة بإنشاء قيادة للشرق الأوسط تضم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا واستراليا ونيوزيلنده وجنوب

افريقيا وتركيا واسرائيل والبلدان العربية بما فيها مصر - وكانت تركيا واليونان قد انضمتا إلى حلف شمال الاطلنطى . وبحلول اغسطس ١٩٥١ كانت الولايات المتحدة وبريطانيا قد قررتا إنشاء قيادة للشرق الأوسط من شأنها أن تساعد المصريين والبريطانيين على حل خلافاتهم حول مستقبل قاعدة قناة السويس .

القرار .. لم يجد قبولا

ولكن هذا الحل لم يجد قبولا من محمد صلاح الدين مما أدى إلى قلق النحاس الذى لم يستطع أن يفعل شيئا بحكم أن وزير خارجيته كان الوزير الوحيد في حكومة الوفد الذى يتمتع بشعبية حقيقية ومساندة عامة بحيث كان أكثر خطورة وهو خارج الحكم منه وهو في السلطة . وحلا للموقف رأى السفير الأمريكى فى القاهرة ضرورة إقصاء صلاح الدين عن وزارة الخارجية اثناء وجوده فى باريس . وهو ما كان يحث عليه كل من فؤاد سراج الدين (وزير الداخلية) والسراى [١] التى كانت تسعى جاهدة حتى ذلك الوقت إلى عدم تفجير الموقف بإقالة الوزارة الوفدية برمتها .

وكسبا للوقت انضمت تركيا إلى الولايات المتحدة وبريطانيا فى دعوة مصر إلى الاشتراك فى قيادة الشرق الأوسط . إلا أن البعثة

---

(١) رسالة من جيفرسون كافرى إلى وزارة الخارجية بواشنطن بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٥١.

الامريكية - البريطانية الفرنسية لم تصل إلى انقرة حتى ١٣ اكتوبر . وحينئذ كانت حكومة الوفد قد الغت معاهدتى ١٨٩٩ و ١٩٣٦ . وفى ١٣ اكتوبر قدم المشروع إلى الحكومة المصرية التى رفضته رسميا فى ١٥ اكتوبر مما جعل الملك فاروق ، الذى كان أميل إلى المشروعات الغربية ، يتحين الفرص لاقالة الوزارة الوفدية التى كان موقفها من المفاوضات - فى رأيه - كفيلا بتفجير الموقف الداخلى بالشكل الذى قد يتهدد عرشه . ولم يستطع فاروق أن يقبل وزارة الوفد التى وضعته فى مركز حرج أمام الرأى العام وسمحت بالعمل الفدائى فى منطقة قناة السويس ولم تتراجع عن إلغاء المعاهدة وتحريض العمال المصريين فى منطقة القناة على ترك الخدمة فى المعسكرات البريطانية . ولكن حريق القاهرة الذى شب فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ سهل له إقالة الوزارة الوفدية فى اليوم التالى.

ويصف محمد صلاح الدين الفترة الممتدة بين حريق القاهرة وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بأنها «الفترة التى نفذت فيها السياسة الامريكية الخبيثة فى مصر ثورة استبدادية لمصلحة الملك ضد الديمقراطية المصرية» . فقد اقدم الضباط الأحرار فى بداية الثورة على وقف الحياة النيابية وحل الأحزاب القائمة بحجة تطهيرها وقاموا بمحاكمة بعض زعمائها أمام «محكمة الثورة» . ورغم ذلك فقد القى محمد صلاح الدين فى عام ١٩٥٤ خطابا فى نقابة المحامين طالب فيه الضباط بالدستور . وفى اثناء العدوان الثلاثى

اجتمع هو وفؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن وأرسلوا مذكرة إلى الرئيس جمال عبد الناصر يضعون فيها خبرتهم وتجاربهم تحت تصرفه وقالوا فى مذكرتهم إنهم لا يريدون من وراء مطلبهم هذا سوى أن يكونوا مجرد مواطنين متطوعين في المعركة . وبعد انتهاء العدوان الثلاثى شكلت محكمة خاصة لمحاكمة مقدمى المذكرة لانهم وقفوا فى المحكمة وطالبوا بإيجاد مؤسسات دستورية وقوانين وقضاة لا يخضعون لسلطة الحكام . وبعدها عمل صلاح الدين مستشارا ووضع القوانين والانظمة لوزارة الخارجية الكويتية ثم انتقل إلى تونس حيث قام بتدريس القانون الدولى فى الجامعة إلى أن عاد إلى القاهرة فى يونية ١٩٧٤ .

وفى ختام هذه الكلمة لابد من توجيه تحية صادقة إلى هذا الوطنى الغيور الذى خدم مصر بقدر جهده وقاسى فى المنفى آلام الغربة ومرارتها مما أورثه المرض ، راجين أن يكرمه الوطن فى شيخوخته ومرضه على ما بذله من جهده فى النضال الوطنى (١) .

---

(١) كتبت هذه السطور قبل وفاة صلاح الدين .

الفهرس

رقم الإيداع : ١٠٠٦٦ / ١٩٩٣

T . S . B . N

977 - O7 - O295 - 1

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب مجموعة من الشخصيات العامة التي ظهرت على المسرح المصرى خلال قرن من الزمان .

وهى تضم بعض كبار المفكرين وبعض الساسة البارزين الذين أدوا أدوارهم وأصابوا وأخطأوا فى إطار الظروف العامة التى كانت تمر بها مصر والتى كان الاحتلال البريطانى يحدد فيها تحركاتهم فى الوقت الذى خضعت فيه مصر للأوتوقراطية السياسية ، ورغم ذلك نجدهم يشقون طريقهم بصعوبة وفوق أشواك من كل حدب وصوب .

الملحوظ أن الفترة التى نشطت فيها هذه الشخصيات قد تميزت بهبوط القضية الوطنية من مستوى النضال فى سبيل تحقيق الاستقلال وإرساء دعائم الديمقراطية إلى مستوى التحايل على الفوز بكراسي الحكم بين بضعة أفراد يطمحون إليها وممثلى دولة الاحتلال ، واتجاه الحركة الوطنية هذا الاتجاه قد ترتب عليه بمرور الزمن إقصاء القوى الشعبية عن مجالها - فمادامت الجماهير تجد أن الأمر لايعدو وصول البعض إلى كراسى الحكم ولاتجد لدى من يحكمها مايتصل بحياتهم اليومية ولاترى نهاية لتفاوضهم مع المحتلين ، فهى منتهية إلى عدم الاكتراث إلا إذا وصل الأمر إلى المساس بالكرامة الوطنية . ومن ثم ما اعتور حياتنا السياسية من نقص وقلق وتدخل السلطة التنفيذية فى الانتخابات وبقاء الأداة الحكومية دون إصلاح أو تعديل وإهمال الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى حد كبير .

ولكن ليست الصورة بمثل هذه القتامة ، إذ الفترة التى نشطت فيها الشخصيات الواردة فى هذا الكتاب شهدت حركة فكرية نشطة تناولت الكثير من مشاكل العصر وسعت إلى مزج الثقافة العربية بالثقافات الغربية ، فتحرر الفكر من القوالب القديمة وبرزت فيه ألوان جديدة : كالقصة والمسرحية والدراسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، هذا بالإضافة إلى السعى إلى متابعة حركة الإحياء الدينى التى حمل لواءها أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وتلامذتهما . فإذا كانت صورة هذه الفترة قاتمة فيما يتعلق بالسياسة فإنها شهدت حركة فكرية أسهم فيها الكثيرون ومازلنا نجنى ثمارها حتى الآن . وكان تأسيس الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) حافزا قويا من حوافز النهضة الفكرية التي عززتها الصحف والمجلات التى أدلى كل منها بدلوه بحيث أصبحت مصر منارة فكرية تشع على شتى ربوع العالم العربى ويسهم فيها عدد كبير من المفكرين الذين أسهموا فى حركة التجديد والترجمة والبحث فى شتى المجالات . فإلى كل الرواد عرفاننا بالجميل وتقديرنا للصعوبات التي واجهتهم وهم يحملون للأجيال مشاعل النور التى لم تنطفىء بل أضاءت الطريق للأجيال .

وهذا الكتاب بقلم أستاذ أساتذة التاريخ الحديث الذى أثرى المكتبة العربية بدراساته التاريخية .


كونيكا
Konica
كاميرات
أفلام
معامل طبع وتحميض
شرائط فيديو
Konica
Konica
Konica
Konica
الوكيل
شركة إساى